من زمن التوهج

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

فخري كريم

العدد (1848) السنة السابعة

الخميس (15) تموز 2010

عبد الكريم قاسم

مؤسس الجمهورية العراقية

المكونات البيئية والفكرية لشخصية عبد الكريم قاسم

6

الزعيم . . . في معهد الفنون الجميلة

10

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1848)
السنة السابعة
الخميس (15)
تموز 2010

عبد الكريم قاسم . . الانسان والقائد

حامد الحمداني

ولد عبد الكريم قاسم في ٢١ كانون الأول ١٩١٤، من عائلة فقيرة تسكن محلة المهدية وهو حي ُفقير يقع في الجانب الأيسر من مدينة بغداد.

أبوه جاسم محمد البكر الزبيدي . جرى تغييره إلى قاسم . وأمه كيفية حسن اليعقوبي وله شقيقان هما [حامد قاسم] شقيقه الأكبر ويعمل كاسباً في بيع الحبوب والأغنام ،وشقيقه الأصغر [لطيف قاسم] الذي كان نائب ضابط في الجيش العراقي ،وبقي بتلك الرتبة طوال مدة حكم أخيه عبد الكريم قاسم ،أما والده فكان يعمل نجاراً ،كما كان يردد عبد الكريم دائماً في خطبه ،ويفخر بكونه أبن ذلك النجار الفقير.

انتقلت عائلته إلى بلدة الصويرة، وهي بلدة صغيرة في جنوب العراق، وكان عمره ٦ سنوات، ولكن العائلة ما لبثت أن عادت إلى بغداد عام ١٩٢٦، حيث أكمل عبد الكريم دراسته الإعدادية، وتخرج فيها عام ١٩٣١، واختار بعد تخرجه أن يعمل معلماً، لمساعدة عائلته ،وتعيّن بالفعل في إحدى قرى الشامية وهي بلدة صغيرة تقع في جنوب العراق ،وقضى في التعليم سنة كاملة، غير أن مهنة التعليم لم ترضِ طموحه، فقد كان، وهو ابن العائلة الفقيرة، يتطلع إلى طموحٍ بعيد المدى،يحقق حلمه في إحداث تغييرٍ عميق في حياة الشعب العراقي وفي ًتحرير العراق من ربقة الاستعمار من جهة ،وفي معالجة مشكلة الفقر من جهة أخرى، وفكر عبد الكريم قاسم في ترك مهنة التعليم، والتحول نحو الجيش الذي كان يرى فيه أمل الشعب في إجراء التغيير الحقيقي والجذري المنشود بعد أن عجزت انتفاضات الشعب المتتالية عن تحقيق هذا الهدف.

كان لابن خالته، العقيد الطيار، محمد علي جواد، قائد القوة الجوية آنذاك ،وليس كما ذكر اسم عبد الجبار جودت خطأً وهو ابن خالة عبد الكريم وليس ابن عمته وقد أغتيل مع بكر صدقي في بهو المطار العسكري في الموصل، دور في دخول عبد الكريم قاسم الكلية العسكرية عام ١٩٣٢، حيث تخرج فيها بتفوقٍ، في ١٥ نيسان من عام ١٩٣٤ ضابطاً برتبة ملازم ثان في الجيش ،وتدرج في رتبته العسكرية حتى وصل إلى رتبة رئيس [نقيب] حيث دخل كلية الأركان في ٢٤ كانون الثاني ١٩٤١ وتخرج فيها بتفوق عام ١٩٤٣.

وفي ٤ تشرين الأول ١٩٥٠ أُرسل عبد الكريم إلى لندن للمشاركة في دورة عسكرية للضباط الأركان أنهاها بتفوق، وعاد إلى العراق ،وتدرج في رتبته العسكرية حتى بلغ رتبة زعيم ركن [عميد ركن]، وكان آخر مركز شغله في المؤسسة العسكرية هو آمر اللواء التاسع عشر الذي كان له شرف قيادة ثورة ١٤ تموز عام ١٩٥٨ .شارك عبد الكريم قاسم خلال خدمته العسكرية في حرب فلسطين آمراً لأحد الأفواج وأبدى بطولة نادرة في معركة [كفرٍ قاسم]، غير أنه عاد من تلك الحرب ناقماً على السلطة الحاكمة في بغداد ،التي خذلت الجيش ،ومنعته من تنفيذ مهامه، وتحقيق آمال الأمة العربية في الحفاظ على عروبة فلسطين ،فقد قيدت حركة الجيش ،ومنع من القيام بمهامه بسبب التواطؤ المعروف بين بريطانيا والحاكمين بأمرهم في بغداد ،فلم تكن حرب فلسطين سوى مسرحية نفذها الحكام العرب آنذاك، بإخراج أنكلو – أمريكي، من أجل تحقيق وعد بلفور، وزير خارجية بريطانيا، الذي وعد اليهود بإقامة وطن قومي لهم في فلسطين .ويتذكر الذين عاصروا تلك الأحداث ، وكنت واحداً منهم ، فضيحة الأسلحة الفاسدة التي جهزت بها بريطانيا الجيش المصري،أيام الملك فاروق، والتي أستخدمها في تلك الحرب، مسببة وقوع خسائر جسيمة في صفوف الجيش المصري ،وتدمير معنوياته، وخذلانه ،من أجل تحقيق أهداف بريطانيا والحركة الصهيونية، في سلب قلب الأمة العربية، وصلة الوصل بين المشرق العربي ومغربه وكان لاختيار فلسطين لإقامة هذا الكيان، اللاشرعي أهداف بعيدة المدى للإمبريالية الانكلو – أمريكية، ظهرت جلية لكل ذي بصيرة ،في تمزيق العالم العربي ،ومنعه من التوحد ،وفي فرض السيطرة الكاملة على المنطقة العربية، والهيمنة على ثرواتها النفطية، وليجعلوا من إسرائيل سيفاً مسلطاً على رقاب الأمة العربية ،وحارساً قويا وأميناً للمصالح الإمبريالية في الشرق الأوسط والخليج.

ولدت تلك الحرب وسلوك الحكام العرب لدى عبد الكريم قاسم سخطاً مشروعاً على النظام العراقي وخيانته لمصالح الوطن ومصالح الأمة العربية ،وجعلت فكرة الثورة تختمر في تفكيره ،فكرس جهده لتنفيذ هذه الفكرة حتى تحقق له ذلك صبيحة ١٤ تموز ١٩٥٨.

كما أن الأحداث التي تلت حرب فلسطين في العراق، والتي كان على رأسها وثبة كانون المجيدة في نفس ذلك العام، ووثبة تشرين المجيدة عام ١٩٥٢، وعقد حلف بغداد ،وانتفاضة عام ٥٦، إبان العدوان الثلاثي على مصر، والتي قمعها الحاكمون بالحديد والنار، جعلت الشعب العراقي وقواه الوطنية، والعناصر الوطنية الثورية في الجيش ،وفي المقدمة منهم عبد الكريم قاسم يفقدون أيٍ أمل في إصلاح أوضاع البلاد سلمياً، ووجدوا أن العمل الثوري هو السبيل الوحيد لإزاحة الفئة الحاكمة من الحكم، وأن السبيل لذلك لا يمكن أن يتم إلا بتدخل الجيش.

وهكذا جاءت ثورة الرابع عشر من تموز ١٩٥٨، والتي قادها بنجاح ،عبد الكريم قاسم مدعوماً بكل فئات الشعب ،من قوميين، وديمقراطيين وشيوعيين ،خرجوا جميعاً صبيحة ذلك اليوم لإسناد الثورة ودعمها ،مستعدين للتضحية والفداء من أجل نجاحها ،وديمومتها،ومن أجل تحقيق آمال وطموحات الشعب العراقي في الحياة الحرة الكريمة.

واستطاعت حكومة الثورة التي شكلها

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1848)
السنة السابعة
الخميس (15)
تموز 2010

عبد الكريم قاسم أن تحقق الكثير من الإنجـازات ،في عامها الأول ،كان في مقدمتها قانون الإصلاح الزراعي ،الذي كان بحد ذاته ،ثورة اجتماعية كبرى حيث حررت الفلاحين الذين يمثلون ٧٥٪ من الشعب العراقي، من نير الإقطاعيين وخلقت علاقات إنتاجية جديدة، وألغت قانون العشائر ،حيث أصبح سكان الريف شأنهم شأن سكان المدن جميعاً خاضعين للقانون المدني

وأول مرة في تاريخ العراق، نصّ دستوره المؤقت الذي أصدرته حكومة الثورة، على أن العرب والأكراد شركاء في هذا الوطن، وفي ذلك خير تأكيد على حقوق الشعب الكردي القومية، وقد تم استقبال الزعيم الكردي [مصطفى البارزاني] ورفاقه العائدين من الاتحاد السوفيتي، استقبالاً رسمياً وشعبياً كبيراً، وتمّ منح العائدين رواتب شهرية، وجرى إسكانهم في بيوت بنيت لهم حديثاً ،وتمّ إسكان القائد الكردي مصطفى البارزاني في قصر نوري السعيد ،وجرى تأمين جميع احتياجاته ،بما يليق به كزعيم كبير للشعب الكردي.

وجاء قانون الأحوال المدنية الجديد ليحرر المرأة ويجعلها على قدم المساواة مع الرجل .فكان بحق ثورة اجتماعية أخرى، وفي المجال السياسي ،أقدمت حكومة عبد الكريم قاسم على إخراج العراق من حلف بغداد ،وتحرير العملة العراقية من منطقة الاسترليني، فكان ذلك نقلة نوعية كبرى في طريق التحرر من الهيمنة الإمبريالية ،وعودة العراق إلى الصف العربي، وتقديمه كل المساعدات لحركة التحرر العربية، وخاصة لفلسطين والجزائر، واستطاعت حكومة عبد الكريم قاسم أن تقيم علاقات متوازنة مع جميع البلدان الأجنبية ،ومنها دول المعسكر الاشتراكي بعد أن كانت حكومة نوري السعيد قد قطعتها فيما مضى.

أما في المجال الاقتصادي، فقد كان تشريع قانون رقم ٨٠ لسنة ١٩٦١ أخطر ضربة وجهها عبد الكريم قاسم لشركات النفط ،حيث تم ّبموجب القانون استعادة ٩٩،٩٪ من الأراضي الداخلة ضمن امتياز شركات النفط ،والحاوية على احتياطات نفطية هائلة، وإصدار قانون شركة النفط الوطنية، بغية استغلال مكامن النفط وطنياً.

ولست هنا في مجال استعراض جميع منجزات حكومة الثورة ،حيث سيكون لها مكان آخر في حلقة قادمة ،ولكني أردت فقط استعراض بعض تلك الإنجازات التي تحققت على يد حكومة الثورة بقيادة عبد الكريم قاسم.

لقد كان المؤمل من الثورة أن يتجذر عمقها بالسير إلى الأمام من أجل تحقيق ما يصبو إليه شعبنا، لكن الانشقاق الذي قاده عبد السلام عارف، الشخصية الثانية في قيادة الثورة والذي دعمه جانب كبير من القوى القومية، والبعثيين، ومحاولة تلك القوى فرض الوحدة الفورية مع الجمهورية العربية ،بالقوة ،عن طريق اللجوء إلى التآمر المسلح،أعاق تجذر الثورة، وتطورها، فقد جرت ثلاث محاولات انقلابية، والثورة ما تزال في عامها الأول، وأدى سلوك عبد السلام عارف إلى شق وحدة الشعب، وجبهة الاتحاد الوطني، وتحول ذلك التعاون، والتآلف بين القوى الوطنية إلى حالة من الاحتراب العنيف.

استطاع عبد الكريم قاسم، بدعم وإسناد من الحزب الشيوعي آنذاك أن يتجاوز كل المؤامرات والمخاطر التي كانت محدقة بالثورة ،حيث سخر الحزب إمكاناته لدعم الثورة وقيادتها دون قيد أو شرط.

لقد كان على تلك القوى أن تناضل معا من أجل قيام مجلس تشريعي ينتخبه الشعب، بكل حرية، ومن أجل سن دستور دائم للبلاد، يصون حقوق الشعب وحرياته ،والرجوع إلى ممثلي الشعب في البرلمان عند تقرير مصائر البلاد ،واعتماد مبدأ الديمقراطية في الحياة السياسية.

كان عبد الكريم قاسم، شأنه شأن أي إنسان آخر، له إيجابياته، وسلبياته معاً، فليس هناك من استطاع الطعن في وطنيته، وأمانته، وحرصه على ثروات البلاد، ومصالح الشعب، ولم يستطع انقلابيو ٨ شباط ١٩٦٣،أن يجدوا أي تهمة تمس أمانته ووطنيته.

لكن عبد الكريم قاسم ،كانت له أخطاؤه، وسلبياته، التي أوقعته في المكيدة التي نصبها له الإمبرياليون وعملاؤهم، وأوقع شعبه معه فيها. لقد أخطأ عبد الكريم قاسم في تقييمه لطبيعة الصراع بين قوى الثورة وقوى الردة، ولاسيما بعد دحر الطبقة الحاكمة، من كبار الملاكين والإقطاعيين، الذين قضت الثورة على سلطانهم، وخاصة بعد إصدار قانون الإصلاح الزراعي، فهذه القوى كانت قد أصبحت أكثر شراسة، بعد إقصائها من الحكم، وأكثر استعدادا للتعاون والتنسيق مع الإمبرياليين من أجل اغتيال الثورة وقيادتها.

لقد أخطأ عبد الكريم قاسم في سياسة التسامح مع أعداء الثورة، وأخطأ في اعتماده على عناصر غير أمينة على مصالح الشعب والوطن، وأخطأ بسياسة [فوق الميول والاتجاهات] وسياسة [التوازن] بين القوى التي تحمي الثورة وتدافع عنها، وبين التي سعت منذُ البداية للتآمر عليها، وأخطأ أخيرا بسياسة [عفا الله عما سلف].

لقد بلغت سياسة عبد الكريم إلى حد إعفاء كل الذين تآمروا عليه ،وحاولوا ،ونفذوا محاولة القتل، ليدبروا انقلاب ٨ شباط١٩٦٣، وليقُتل على أيديهم فيما بعد.ومن جهة أخري سعى عبد الكريم قاسم، عملاً بسياسة [التوازن] التي أتبعها، إلى تحجيم الحزب الشيوعي ،سنده الحقيقي، على الرغم من الأخطاء التي وقع فيها الحزب، وخاصة في أسلوب تعامله مع الزعيم عبد الكريم قاسم ولجوئه إلى الشارع يوم الأول من أيار [عيد العمال العالمي] عام ١٩٥٩، حيث سيّر تلك التظاهرة المليونية رافعة الشعار [عاش زعيمي عبد الكريمي، الحزب الشيوعي بالحكم مطلب عظيمي] وهنا انقل الشعار نصاً كما كانت الجماهير تهتف به دون تغيير، لقد كان لذلك الشعار الخاطئ وقع خطير جداً ليس على عبد الكريم وحده، بل على البرجوازية الوطنية، والإمبريالية العالمية والحزب الشيوعي نفسه، فلقد صارت لعبد الكريم قاسم القناعة بأن الحزب الشيوعي قد اصبح قاب قوسين أو أدنى من الوثوب إلى الحكم، وأدخل قادة البرجوازية الوطنية المتمثلة بكتلة الراحل محمد حديد الروع في نفس عبد الكريم قاسم من خطورة الشيوعيين، ولم يكن فزع الولايات المتحدة وحلفائها الغربيين أقل من ذلك شأناً، فقد صرح في ذلك اليوم رئيس جهاز المخابرات المركزية الأمريكية [آلن دلالس] قائلاً : [إن أخطر ما يواجه عالمنا اليوم هو الوضع الخطير في العراق] فقد حصلت لديه القناعة بأن الحزب الشيوعي يوشك أن يثب إلى السلطة في العراق، على الرغم من أن الحزب الشيوعي لم يكن يفكر آنذاك في مشروع من هذا القبيل، بل على العكس من ذلك كان الحزب الأكثر اندفاعاً في حماية الثورة، وهو الذي عبأ جميع المنظمات الشعبية النقابات والاتحادات، حيث جندت كل قواها لحماية الثورة ودعمها ،فكان تغيير موقف الزعيم عبد الكريم قاسم من الحزب ومحاولة تحجيمه خطأ فادحاً وقع فيه ، مما أدى في نهاية المطاف إلى عزلته عن جماهير واسعة من الشعب، ذات المصلحة الحقيقية في الثورة، وبالتالي مهد السبيل لتلك القوى البعثية والقومية لاغتيال ثورة الرابع عشر من تموز،وقائدها عبد الكريم نفسه في انقلابهم الفاشي في الثامن من شباط عام ١٩٦٣ الذي أغرق العراق بالدماء.

كما أنه أخطأ في تقديره لمكائد الإمبرياليين الذين أستفزهم إصدار قانون رقم ٨٠ لسنة ١٩٦١ ولم يتعظ من أحداث إيران على عهد [الدكتور مصدق]، والانقلاب الأمريكي الذي قاده [الجنرال زاهدي] عميل المخابرات الأمريكية ،بعد إقدام مصدق على تأميم النفط الإيراني، حيث لم يتخذ الإجراءات الكفيلة لصيانة جبهة الاتحاد الوطني ،وزجها في المعركة ضد الإمبريالية، فكان تحرك الإمبرياليين، أسرع منه، واستطاعوا إسقاط حكومته.

إذاً لم يكن عبد الكريم قاسم المخطئ الوحيد على الساحة السياسية للبلاد، بل أن سائر الأحزاب السياسية كان لها دور ونصيب في تلك الأخطاء ،سواء كان بشكل مباشر أو غير مباشر.

ورغم كل الأخطاء التي وقع فيها عبد الكريم قاسم، فأنه يبقى شامخاً، كقائد وطني مخلص، معاد للاستعمار ،نذرٍ حياتهّ في سبيل تحرير وطنه، من نير الإمبريالية وسعى إلى إسعاد شعبه والنهوض بالعراق في مختلف المجالات الاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، والصحية، محققاً العديد من الإنجازات رغم قصر عمر الثورة ورغم الظروف التي أحاطت بها، ولو قدر أن تمتد الحياة بالشهيد عبد الكريم قاسم، ولو لم تقع الأحزاب السياسية كافة بأخطائها تلك، وسبل تعاملها معه، لكنا شهدنا الشعب العراقي اليوم يعيش في أرقى المستويات التي تعيشها الشعوب المتقدمة في العالم أجمع، ولما شهد شعبنا الويلات والمآسي والمصائب على أيدي انقلابيي شباط ١٩٦٣ وانقلابيي ١٧ تموزو٣٠ تموز ١٩٦٨ المغرقين بالجريمة حتى آذانهم بحق شعبنا ووطننا، وعلى رأسهم الجلاد الأكبر صدام حسين.

لك المجد والخلود أيها الزعيم عبد الكريم قاسم، وسيلحق قاتليك ومغتالي ثورة الرابع عشر من تموز ١٩٥٨، الخزي والعار الأبدي جراء الجرائم التي اقترفوها بحق الشعب والوطن.

د. حامد الحمداني.. باحث ومؤرخ

الموضوع مستل من دراسة طويلة عن ثورة ١٤ تموز

علي الوردي يقدم وصفا لعبد الكريم قاسم

يقول عالم الاجتماع الدكتور علي الوردي عن الزعيم عبد الكريم قاسم قائد ثورة ١٤ تموز ومؤسس الجمهورية:

يجدر بي قبل ان انتهي من كلمة الوداع هذه أن أشير الى موقف الزعيم عبد الكريم قاسم في هذه المرحله الاجتماعية الهامة من تاريخنا. فقد أعلن الرجل غير مرة أنه فوق الميول والاتجاهات، واعتقد انه صادق فيما قال. مع ذلك لا أستطيع أن أعد موقفه هذا خاليا من الدقة والحراجة.

انه ليس قائد حزب وانما هو قائد بلد تتصارع فيه الأحزاب، وهو إذن معرض للحيرة أكثر من تعرض أي قائد حزبي لها. وكلما تأملت في حراجة موقفه هذا شعرت بالثقل الهائل الموضوع على عاتقه، ساعده الله.

إنه لا يستطيع أن يتجاهل أهمية الحماس الشعبي في تأييد الثورة التي تكاثر عليها الأعداء وهو لا يستطيع كذلك أن يجاري هذا الحماس إلى الدرجة التي اندفع بها المتعصبون المتسرعون. بين يديه من جهة بلد يحتاج إلى استقرار، وبين يديه من الجهة الأخرى ثورة تحتاج إلى تأييد ولابد للرجل من أن ينظر في هذه جهة تارة أخرى.

إني أشعر بالعجز في سياسة صف واحد من الطلاب حين يشتد الجدل بينهم، فكيف بالرجل وهو يقود ثورة كثورة ١٤ تموز وفي مجتمع كالمجتمع العراقي. ومهما يكن الحال فإننا يجب أن نحني رؤوسنا اعترافا بما وهب الرجل من مهارة في قيادة سفينة البلد بين هاتيك الأمواج المتلاطمة.

من كتاب الأحلام بين العلم والعقيدة. ١٩٥٩

العراقيون
من زمن التوهج
العدد (1848)
السنة السابعة
الخميس (15)
تموز 2010

شاكر حسن آل سعيد وعبد الكريم قاسم

د. شاكر الحاج مخلف

في أواخر العام ١٩٦٣، في مرحلة الدراسة المتوسطة، انتقلت عائلتي من البصرة الفيحاء إلى بغداد الرشيد؛ وتبعا لذلك، اختلف كل شيء، وخاصة الدراسة، دق الجرس، وكانت الحصة الأولى في ثانوية النظامية هي حصة الرسم. جميع زملائي لديهم علب ألوان، ودفاتر رسم إلا أنا، ففي ثانوية "المعقل" التي نقلت منها لم نكن نمارس الرسم، أو الرياضة أو التمثيل، كانت الدراسة تقتصر على الدروس الأساسية فقط، التلميذ الذي يشاركني مقعد الدراسة "بدين بعض الشيء وله ملامح كما لو كنت أعرفه من قبل ولكنه لم يكلمني ظل منهمكا برسم لوحة عن زقاق بغدادي بمهارة واضحة، نظر معلم الرسم "شاكر حسن آل سعيد" نحوي، لم يكلمني، تشاغلت بفتح حقيبتي الجلدية فسقطت منها ميدالية تحمل صورة المرحوم – زعيم العراق عبد الكريم قاسم – تدحرجت الميدالية واستقرت عند الجدار حيث السبورة مثبتة، كان أخي الكبير قد طلب مني التخلص منها لكني لم أفعل، كانت مع قلم حبر من النوع الثمين هدية الزعيم لي ولثلاثة من زملائي عندما مثلنا أمامه مشهدا عن ثورة الجزائر، رأيته واقفا على أرض المخيم الكشفي في ـــ أبي غريب وبجواره وزير المعارف – إسماعيل العارف تجمد الزمن لحظة عندما كنت أحدق في ذلك الوجه الذي استوطن القلب والعين، وعندها أيضا سقطت الهدية من يدي ابتسم "قاسم" بود وحنان وقد فطن بذكاء لحالة الاندهاش التي تعصف بيّ فأنا أقف أمام الزعيم الذي صفع الإنجليز وعملاءهم، أشار بطرف عينه إلى مرافقه الذي أسرع والتقط الهدية وقدمها لي بينما ابتسامة "عبد الكريم قاسم" لم تفتر أو تغادر وجهه... الآن تحرك "آل سعيد" نحو الميدالية رفعها من الأرض ورأى بشكل خاطف الصورة، رأيت ابتسامة خفيفة على وجهه، تقلص حجم الخوف والقلق، وضع الميدالية على ظهر مقعد الدراسة، دون أن يقول كلمة، الطالب الذي يشاركني مقعد الدراسة رأى الصورة، هو أيضا انفرجت أساريره بينما أنا أشتعل قلقا، وجود صورة "للزعيم" مع طالب تعتبر عملية تحريض سياسي، تنتهي بالطرد من مقاعد الدراسة، كان الموقف عصيبا، توقف الطالب الذي يجلس بجواري عن الرسم وظل محاصرا يبحث عن مفتاح للحديث معي، لم يحتمل فهمس لي بحذر شديد "لا تخف، عبد الكريم قاسم عمي!!" صفعة كبيرة أخرى أتعرض لها، لم أرد عليه، صار تحفظي أكبر، ولكني نظرت إلى وجهه من زاوية عيني، فعلا ملامحه قريبة تماما إلى صورة المرحوم "عبد الكريم قاسم" قطع تلك المتابعة مدرس الرسم "آل سعيد" وهو يقدم لي دفترا للرسم، قدمه لي، وقال:

-شاكر حاول أن ترسم..

فتح "عبد الله حامد قاسم" الذي يجاورني حقيبة موضوعة على الأرض وقدم لي علبة أقلام ملونة ومعها ابتسامة أخوية صادقة، أخذتها مع كلمة شكر لكني شعرت بالخجل، كيف أرسم؟ حاولت فعلا رسم عدة خطوط، ولكنها لم تكن تعبر عن شيء، نظرت نحو دفتر زميلي.. الفرق بيننا كبير، شعرت بالعجز توقفت، وقلت لنفسي أنا لا أعرف، وضعت القلم جانبا ، وما هي إلا لحظات حتى اقترب "شاكر حسن آل سعيد" نظر في دفتري وقال:

– لماذا لا تحاول؟!

رأيت عيون جميع زملائي تحدق بي.. وقفت، وقلت له، وأنا أنظر نحو أقدامي:

– لا أعرف أن أرسم..

قال "آل سعيد" مرة أخرى، وهو يبتسم:

– حاول.....!

عندها دق الجرس، أنقذني الحظ من ذلك الموقف المحرج، وجاء جميع الطلاب لينظروا بسخرية إلى الدفتر المفتوح أمامي، حيث لم يكن في الصفحة سوى ثلاثة خطوط متباعدة خجلة.. حزت في نفسي سخرية زملائي ، فقررت الغياب عن الفصل، عندما يحين درس الرسم، مهما كلفني ذلك.

مر الأسبوع الأول، ثم الأسبوع الثاني، وأنا أقاطع درس الرسم، أجلس في الحديقة دافنا جسمي بين الآس، كي لا يراني ناظر المدرسة. في الأسبوع الثالث رأيت بواب المدرسة يقوم بنقل رزم الكتب، التي خصصتها الوزارة لمكتبة المدرسة، وكنت كعادتي أقاطع درس الرسم، فقررت الخروج من مخبئي ومساعدته، وكنت سعيدا بذلك القرار، حملت ربطة الكتب الثقيلة، وما كدت أصل إلى بوابة الممر المؤدي إلى المكتبة حتى زلت قدمي، وسقطت، وتناثرت الكتب في الممر، وأحدث ذلك دويا كبيرا، على أثر ذلك شعرت بألم حاد، في الساق، والمرفق الأيمن. امتدت نحوي يد لتساعدني على الوقوف. كانت يد "شاكر حسن آل سعيد"! راح يجمع الكتب، وعيناه مثبتة في وجهي، ثم قال:

– هل أنت تكرهني؟...

قلت:

– كلا يا أستاذ، أنا أكره درس الرسم..

قال شاكر آل سعيد:

– هل جئتنا من كوكب آخر! لماذا تكره الرسم؟

قلت:

– لا أعرف..

قال المعلم:

– بدلا من الجلوس بين شجيرات الآس، خذ القلم وحاول أن ترسم، وتذكر أن المواجهة تمنحك فرصة لتطرد الفشل، هيا عد إلى الفصل

سحبت خطواتي، ومعلم الرسم في أثري، وعندما جلست على المقعد، فتح حقيبته وقدم لي علبة ألوان الرسم وقال"

– "هذه هدية تصالح بينك وبين الفن، أنت فنان يا شاكر ولكنك تنكر ذلك..!

كما قدم لي دفترا جديدا، ومسك يدي، وبدأنا نرسم. أكتمل تخطيط اللوحة، ولم يبق سوى تلوينها،قال لي هامسا:

– هل تخلصت من ميدالية الزعيم...؟ قلت على الفور:

– ولم أحتفظ بها، عبد الكريم قاسم حيّ يجلس بجانبي..!

ضحك شاكر حسن آل سعيد بقوة وقال "عفيه"...!

في البيت تركت كل شئ، وبدأت في تلوين اللوحة، حتى بدت رائعة.

في اليوم التالي نظر معلم الرسم إلى اللوحة بارتياح، ووضع علامة مئة من مئة لها ، كانت فرحتي كبيرة ودهشة زملائي كبيرة أيضاً، على أثر ذاك أزداد حبي لدرس الرسم، أخذت اهتم به كثيراً، بدأت لوحاتي تنافس لوحات زملائي، وكان معلم الرسم يُتابعني بحرص شديد، ويشرح لي مُوضحاً أسرار فن الرسم، ولكن الأمر الغريب كان سلوكه معي في وضع العلامات فكلما رسمت لوحة جيدة تبهر الجميع وضع لي درجة أقل من العلامة التي سبقتها!! وذات يوم رسمت لوحة كبيرة كانت حديث الطلاب والمدرسين، توقعت الحصول على مئة من مئة عليها، ولكن المفاجأة التي حصلت زادت من غضبي هي وضع علامة عشرة من مئة، وقررت الاحتجاج على ذلك ، فقلت لمدرس الرسم "شاكر حسن آل سعيد":

– لم أكن أعرف شيئاً في الرسم وحصلت منك على مئة من مئة، والآن أرسم بشكل جيد وأحصل على عشرة من مئة!؟..

ضحك وقال:

– هذه العشرة من مئة للرسم الأول، أما المئة من مئة فهي لهذا الرسم الأخير!!

ضج جميع الطلاب بالضحك، وبعد مرور ثلاثين عاماً على تلك الحادثة، وكنت وقتها أقيم في إحدى الدول العربية، وأعمل صحافياً في إحدى المجلات ومكلفاً بتغطية افتتاح أحد المعارض الفنية لمجموعة من الرسامين العرب الرواد في الفنون التشكيلية، كم كانت دهشتي كبيرة عندما رأيت أستاذي يقف قرب لوحته في قاعة المعرض وقد دبّت الشيخوخة في ملامحه، اندفعت نحوه أعانقه، لم يعرفني، ولكني عدت به إلى ذكريات الهروب من درس الرسم، أخيراً تذكرني وضحك وقال:

– كنت تهرب من الرسم وأنت صغير، والآن تهرب من الرسم ولكن لتكتب النقد عن الذين يرسمون وأنت كبير..!...

رحم الله شاكر حسن آل سعيد كان فنانا عراقيا يتشرف بانتسابه إلى إحدى مدن الجنوب، صديقا وأستاذا وعالما وقبل كل شيء وطني من الطراز النادر، رحمة الله عليه ...! عندما كنت استعد لرفع الستار عن أطروحتي في الإخراج المسرحي في عمادة معهد الفنون الجميلة، والتي أعددتها عن رواية قصيرة للكاتب الروسي العظيم "غوغول" في العام ١٩٧٦ أسميتها "بطاقة دعوة من مجنون – كانت عن رواية "النفوس الميتة" دخل "شاكر حسن آل سعيد" ورآني أقوم بدق المسامير وقد سجنت المسرح بالأسلاك الشائكة تعبيرا عن رفض واحتجاج سياسي دفين ومن أعلى المنصة امتدت مشنقة، ضحك بهدوء وقال لي:

– تتذكر في النظامية، قلت لك أنت فنان يا شاكر، أنا أفهم ماذا تعني ولكنهم لا يفهمون...

ضحك وقال عند باب القاعة وهو يهم بمغادرتها:

– سأكون أول مشاهد لديك الليلة ، تمنياتي بالتوفيق..

الولايات المتحدة

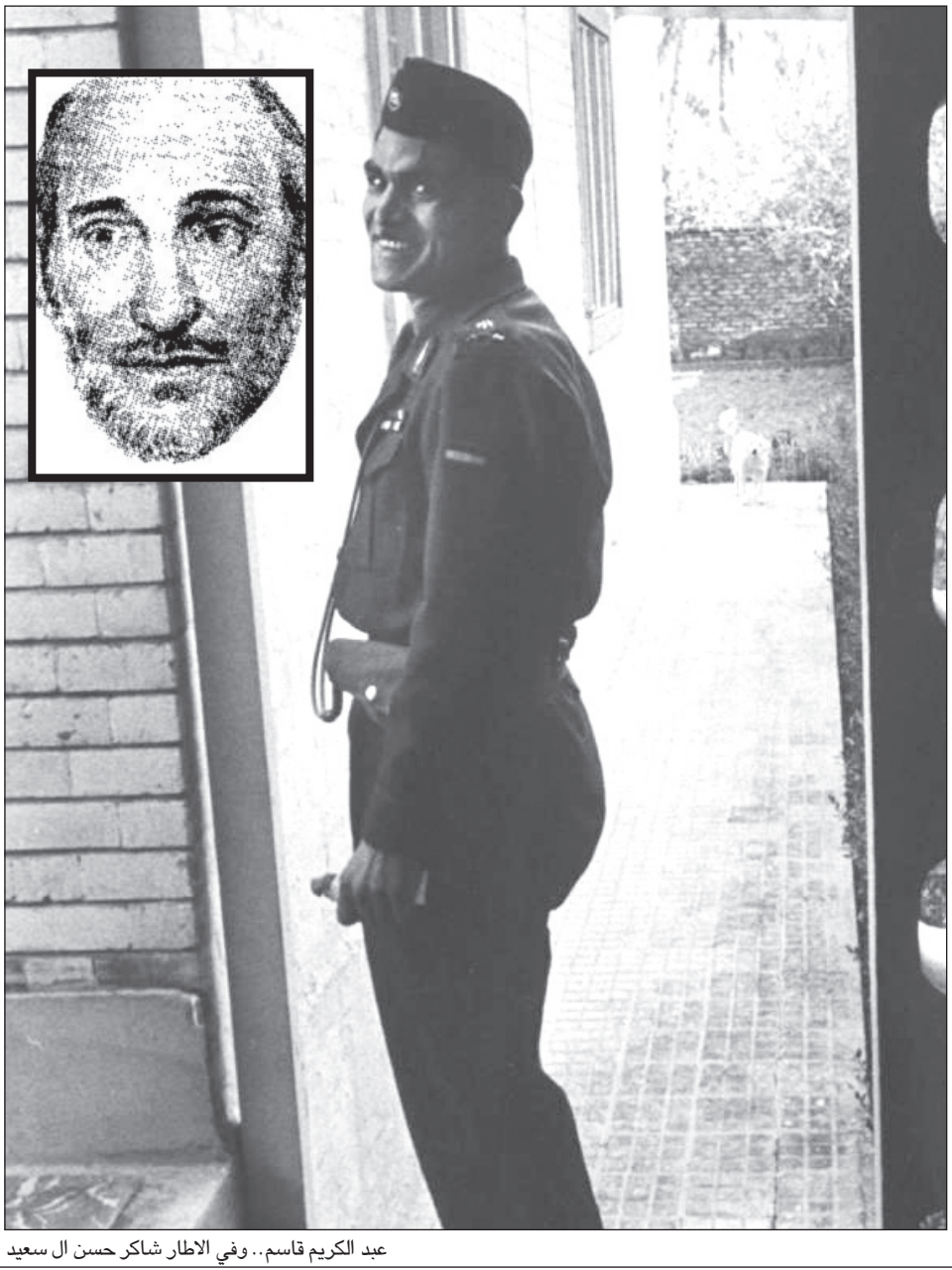

عبد الكريم قاسم.. وفي الاطار شاكر حسن ال سعيد

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1848)
السنة السابعة
الخميس (15)
تموز 2010

هذا هو قائد الثورة

بقلم سكرتيره الخاص: الرئيس الاول الركن جاسم العزاوي

تخرجت في الكلية العسكرية في شهر تموز ١٩٤٧ وبعد مضي ستة اشهر التحقت بدورة خاصة في الفرقة الثانية. وفي مساء احد الايام وانا جالس في قاعة نادي الضباط، شاهدت شابا رشيقا يتقد حماسا، وينطق بالوطنية والاخلاص. ولا ادري كيف جذبني هذا الشاب نحوه، وكل ما اعرفه انني تقربت منه، وحاولت الاحتكاك به، وما ان تحدثت اليه حتى ملك علي مشاعري، واصبحت كلي آذانا صاغية لما يقوله، وانفتح له قلبي وكأنني اعرفه من عهد قديم... ولم يكن هذا الشاب الا الزعيم الركن بطل الثورة وقائدها عبد الكريم قاسم، وكان حينذاك برتبة مقدم ركن.

وفي شهر مارس من عام ١٩٤٨ التقيت قائدنا مرة ثانية في فلسطين، وفي منطقة جسر المجامع بالذات، وكنت ضابط الهندسة الذي رافق الكتيبة التي حاصرت موقع كشير (قرب بيسان). ومازلت اذكر جيدا عملية تقدم الزعيم الركن عبد الكريم قاسم على رأس كتيبة من اقصر الطرق التي تؤدي الى الشونة،

بالرغم من مرور هذا الطريق بمحاذاة الجيش اليهودي، وما زلت اذكر غضب القيادة العراقية من هذا العمل الذي اعتبروه مخاطرة كبيرة، وحاولوا منعه بشتى الطرق، وقد اصدروا له امرا خطيا بعدم التقدم من هذا الطريق، الا انه تقدم على الطريق محتملا المسؤولية على عاتقه، وهو عارف جيدا نتائج عمله، ومطمئن من نجاحها، ونجحت فعلا! فكان لها صدى كبير. وبعد ان اعطيت مسؤولية الدفاع عن منطقة كفر قاسم (وهي المنطقة القريبة من تل ابيب) الى الكتيبة التي يقودها زعيمنا وقائدنا عبد الكريم، كنت انا آمر قطعة الهندسة التي الحقت بكتيبته، وبقيت معه لفترة طويلة، حتى ابدلت بقطعة هندسة اخرى. وهكذا، وفي ظروف حرب فلسطين، تتلمذت على يد الزعيم، وتلقنت الدروس الاولى... دروس الثورة ضد الطغيان والظلم، الثورة على كل ما هو ضد العدالة وضد الانسانية.

افترقنا بعد انتهاء حرب فلسطين، ودخلت كلية اركان الحرب عام ١٩٥٢، وتخرجت فيها عام ١٩٥٤، وشاءت الاقدار ان تجمعني بزعيمي وقائدي عبد الكريم مرة ثانية، فصدر امر نقلي ضابط اركان حرب اللواء التاسع عشر، الذي كان يقوده الزعيم الركن عبد الكريم قاسم، وهكذا التقينا ثانية.

ولكن كان لقاء من نوع آخر، حيث انني قد ازددت وعيا وتقدمت في الخدمة العسكرية. واصبحت برتبة رئيس ركن، وازدادت تجاربي. ومن الناحية الاخرى اصبحت حالة العراق ورجالاته البائدون مكشوفة لكل ذي عين تبصر، وكنت مع اخوان لي في كلية الاركان قد نظمنا خلية جديدة مرتبطة بأحد قادة الثورة حينذاك. وهكذا كنا في لقائنا الاخير متفاهمين روحيا وقلبيا، الا ان الزعيم كان يمتاز بالكتمان الشديد، فلم يصارحني بالموضوع ولم اصارحه انا بدوري، ولكنه كان يعرفني وخليتي جيدا، لأنه كقائد للثورة يعرف كافة خلاياه. وبعد مضي اكثر من سنة نقلت الى منصب اخر في وزارة الدفاع ببغداد، واستمر العمل الصامت، فكانت تأتينا التوجيهات من مجلس قيادة الثورة الذي كان يرأسه الزعيم الركن عبد الكريم قاسم بواسطة احد اعضاء المجلس الذي كانت خليتنا مرتبطة به، وكنت انا مسؤولا عن تنظيم خلايا سلاح الهندسة.

ولقد جرت عدة محاولات للقيام بالثورة، الا انه كانت تؤجل لاسباب لا يتسع المجال لذكرها، حتى كان مساء يوم ١٠ تموز. ابلغنا خطة الثورة وواجباتنا نحن في بغداد بالنيابة عن الزعيم الركن عبد الكريم قاسم، وكان واجب خليتي التي تتكون من ضباط الهندسة وبعض الضباط من غير الهندسة، واذكر منهم الرئيس عبد الستار العبوسي الذي شارك في اقتحام قصر الرحاب، ولعب دورا مهما في القضاء على الاسرة المالكة، اقول كان واجبي مع اخواني ضباط الهندسة هو اعتقال رئيس اركان الجيش العراقي السابق محمد رفيق عارف، والسيطرة على معسكر الرشيد. وقد شاركنا في السيطرة على معسكر الرشيد اخوان لنا من خلية اخرى، اذكر منهم المقدم الركن محمد مجيد، والرئيس الاول الركن عبد الستار عبد اللطيف، وقد طلب منا كتمان هذه الخطة، وعدم تبليغ ضباطنا بها حتى مساء يوم ١٣ تموز، وقد تم ذلك فعلا، وانجزنا واجبنا بدقة، واعتقلنا رئيس الاركان السابق في معسكر الهندسة، وبقيت انا مع اخواني ضباط الهندسة في ثكناتنا حتى قابلت قائدنا عند زيارته معسكرنا، ومن ثم نقلت الى منصبي الحالي، وهو سكرتير وزير الدفاع. وهكذا رجعت للاشتغال تحت امرة قائدي وزعيمي مباشرة، واني لفخور بذلك. ان انطباعاتي عن قائد الثورة طوال هذه المدة التي عرفته خلالها، اي من عام ١٩٤٧ حتى الآن، تتلخص في انه عادل ولا تأخذه في الحق لومة لائم.... كتوم جدا... امين الى اقصى حدود الامانة وصادق في اعماله واقواله.. حافظ للعهد لا ينسى اصدقاءه مهما ابتعد عنهم، وخير دليل على ذلك انه وصلته رسالة من شخص يدعى عبد الجبار حمزة، وحينما فتحتها وقدمتها له وهو في أوج اشغاله، تذكره حالاً، وقص علينا قصته، واذا به يعرفه منذ عام ١٩٣٤ حينما كان القائد لا يزال طالبا في الكلية الحربية، وصديقه هذا كان ولا يزال من افراد الشعب.

والزعيم قاسم مخلص لبلاده منتهى الاخلاص، ومؤمن بقوة الشعب العراقي والعربي... جريء في الحق ولا يقبل الباطل مهما كان مصدره... زاهد في المادة، وليس له مطمع شخصي في الحياة. صريح في اقواله واعماله، دؤوب على العمل، قليل الكلام كثير الاعمال. هادئ يعمل بهدوء ومن دون ضجة. يحب مرؤوسيه ويحرص على تأمين ما يحتاجونه ولا فرق عنده بين جندي وضابط في سبيل ذلك. محبوب من جميع افراد القطعة العسكرية التي يقودها.

مجلة المصور عدد خاص صدر عام ١٩٥٨

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1848)
السنة السابعة
الخميس (15)
تموز 2010

عبد الكريم قاسم افضل من حكم العراق

إني أسمح لنفسي أن أبدي ملاحظاتي وأستميح كل مناضلي الحزب الديمقراطي الكردستاني والشعب الكردي الذين مارسوا أدوارهم في تلك الفترة عذراً لأن أقول وبصراحة بأنه كان خطأً كبيراً السماح للسلبيات بالتغلب على الإيجابيات في العلاقة مع عبدالكريم قاسم، مما ساعد على تمرير مؤامرة حلف السنتو وعملائه في الداخل والشوفينيين وإحداث الفجوة الهائلة بين الحزب الديمقراطي الكردستاني وعبدالكريم قاسم. فمهما يقال عن هذا الرجل فإنه كان قائداً فذاً له فضل كبير يجب أن لا ننساه نحن الكرد أبداً. لا شك أنه كان منحازاً إلى طبقة الفقراء والكادحين وكان يكن كل الحب والتقدير للشعب الكردي وكان وطنياً يحب العراق والعراقيين وكان التعامل معه ممكناً لو أحسن التقدير. يُتَهَمّ عبدالكريم قاسم بالإنحراف والديكتاتورية، أتساءل هل من الإنصاف تجاوز الحق والحقيقة؟ لقد قاد الرجل ثورة عملاقة غيَّرت موازين القوى في الشرق الأوسط وألهبت الجماهير التواقة للحرية والإستقلال وشكل أول وزارة في العهد الجمهوري من قادة وممثلي جبهة الإتحاد الوطني المعارضين للنظام الملكي ومارست الأحزاب نشاطاتها بكل حرية. ولكن لنكن منصفين ونسأل أيضاً من انقلب على من؟ إن بعض الأحزاب سرعان ما عملت من أجل المصالح الحزبية الضيقة على حساب الآخرين وبدلاً من أن تحافظ أحزاب الجبهة على تماسكها الذي كان كفيلاً بمنع عبدالكريم قاسم من كل إنحراف، راحت تتصارع فيما بينها وبعضها تحاول السيطرة على الحكم وتنحية عبدالكريم قاسم ناسية أولويات مهامها الوطنية الكبرى إني أعتبر أن الأحزاب تتحمل مسئولية أكبر من مسئولية عبدالكريم قاسم في ما حصل من انحراف على مسيرة ثورة ١٤ تموز (يوليو) لأن الأحزاب لو حافظت على تماسكها وكرست جهودها من أجل العراق، كل العراق ووحدته الوطنية الصادقة، لما كان بإمكان عبدالكريم قاسم أو غيره الإنحراف عن مبادئ الثورة. إن عبدالكريم قاسم قد انتقل إلى العالم الآخر، ويكفيه شرفاً أن أعداءه الذين قتلوه بتلك الصفة الغادرة فشلوا في العثور على مستمسك واحد يدينه بالعمالة أو الفساد أو الخيانة. واضطروا إلى أن يشهدوا له بالنزاهة والوطنية رحمه الله. لم أكره عبدالكريم قاسم أبداً حتى عندما كان يرسل أسراب طائراته لتقصفنا، إذ كنت امتلك قناعة بأنه قدم كثيراً لنا، كشعب وكأسرة لا يتحمل لوحده مسئولية ما آلت إليه الأمور. ولا زلت أعتقد أنه أفضل من حكم العراق حتى الآن.

مسعود البارزاني
رئيس اقليم كردستان العراق
فصل عن ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، من كتاب: البارزاني والحركة التحررية الكردية.

ومن بين تلك الشرائح علاقات الفنانين فيما بينهم، كفئة أو نوع من أجناس البشر، مثلهم مثل الآخرين في اختلافاتهم العامة، انتماءآتهم، واهوائهم، واعمالهم. وبالتالي فهذه الشريحة هي ليست مجرد أشخاص فاعلة في مجتمعاتها وحسب، وإنما هم (صانعو التاريخ)، اذا ما اتيحت لهم فرص الريادة، وتسنموا مواقع ذات تأثير على الحياة العامة، كالرؤساء، والزعماء، والعلماء، والفنانين، وسائر المثقفين. وانطلاقا من هذه الصفة الخاصة لبعض الناس، ولا مانع ان يتماثل معهابعض من غير المؤثرين أو المهمين، شرط أن يكونوا من غير الطارئين يكون لبصماتهم فعل السحر على مجتمعاتهم. من هذا التقديم الذي وجدته ضروريا للدخول الى الحديث عن شخصية الزعيم عبد الكريم قاسم، كشخصية مهمة في حياة المجتمع العراقي الذي دخل الى قلوب الناس ـ على اقل تقدير في بداياته ـ بلا استئذان. ولكي اتمكن من انصافه، لأني لم أخبره عن قرب وانما عن طريق ما وصلني من المتداولات الجميلة عن شخصيته الساحرة، وسأختار حكايا من أناس هم من عائلتي مرت بهم تجارب . على بساطتها . الا انها كانت مؤثرة. سأتناولها، وسأترق الى ما ساد في زمنه من توجه علمي مدروس الي الفن.

في واحدة من أعراف معهد الفنون الجميلة في الستينيات والسبعينيات، أن يقيم مهرجانه السنوي المتألق، والمتنوع باتقان، على حدائق المعهد. حيث يقدم خلالها فعالياته المتنوعة التي تشكل أغلب نشاطاته النوعية حصيلة كل العام، ولجميع الاختصاصات، مسرحية وتشكيلية، وموسيقية، وما يبادر اليه الفنانون وطلاب الفن من سائر الفعاليات المبتكرة الأخرى الفنية وغيرها. حيث كانت الاحتفالات في اوج ألقها. واستمر هذا التقليد حتى الآن، مع تضاؤل يذكر للألق القديم للفعالية، بسببين مهمين هما، بسبب ضعف الصدق في انتماء قاطنيها الجدد من اساتذتها وطلابها . بعضهم . النابع من غياب الدقة في اختيار كليهما . أساتذة وطلابا . الذين تدخل في انتقائهم المحسوبيات والمنسوبيات. مما جعل حمل مسؤولية هذا الصرح العتيد لا يخلو من الخلل، واللامبالاة، وتوالت الاجيال على منوال من هذا النوع الذي لا تقبله المؤسسة الفنية، لكي تعود الى سابق عهدها، في تخريج الفنانين على غرار من خرجهم هذا المعهد من قامات ساهمت في سفر التكوين لكل الاسماء المهمة في الفن العراقي بمختلف اصنافه وكجزء من التباهي والاعلان عن الناس والطريقة التي تساهم في بنائهم، كان يقام هذا المهرجان السنوي المتنوع والنوعي.

في لحظة تفكير غاية في النوعية أبطالها الاستاذ المربي والفنان الشعبي (الحاج ناجي الراوي) الذي ترك بصماته المحلية الواضحة في الكثير من الاعمال الفنية المسرحية والتلفزيونية والسينمائية. فهو ابن بغداد الذي تربى على كامل ارثها، ابتداءا من (الزورخانة) . كان واحدا من ابطالها المتميزين . الى معرفته الدقيقة بـ (نهر دجلة) الذي عرفه سباحاو (بلاما)، مارس فيه هواية صيد السمك. وكاستغلال لـ (مسبح المعهد) الذي وجد فيه الحاج ناجي الراوي مادة فنية، يستطيع من خلالها نقل دجلة الى المحتفلين ليعرفهم على أهم مميزات (دجلة) الذي يستثمر كواحدة من وسائل النقل للعابرين بين الصوبين (الكرخ والرصافة). فما كان منه الا ان يأتي بـ (زورق نهري) يضعه في المسبح، ويستعين بأكثر الطلاب انتماءا الى لياقة بدنية، وملاءمة في الشكل والمحتوى، بامكانه ان يدير دفة هذه الفعالية (كريم عواد) الفنان والممثل المسرحي المعروف، ليتولى القيام بشخصية (البلام) في هذه الفعالية، يقوم بنقل العابرين من المحتفلين بين ضفتي النهر (المسبح). وصادف . يوم كان كريم عواد يؤدي مهمته بكل دقة وانتشاء ان يمر . راعي الاحتفالية . رئيس الوزراء الزعيم عبد الكريم قاسم. فما كان من (كريم عواد) المعروف بجرأته ومشاكساته الا ان يطلق صوته الجهوري باتجاه (الزعيم عبد الكريم قاسم) طالبا منه العبور بلهجة بغدادية محببة:

كريم عواد : ياالله سيادة الزعيم تعبر لذاك الصوب؟

توقف الزعيم قاسم، ونظر باتجاه الصوت الأمر الذي جعل كريم عواد ينظر بخوف باتجاه الزعيم، بنظرة اعتذار، فيها طلب خفي ان يسامحه علي هذا التصرف الذي سيؤدي به الى عقوبات جمة، من قبل الزعيم ومن الحاضرنن ممن لا ترضيهم هذه المداعبة السمجة مع رئيس الدولة، والعقوبة الاقصى ستقوم بها ادارة المعهد التي قد تكون فصله من اكمال الدراسة في المعهد. الكل ينتظر ردة فعل سيادة الزعيم عبد الكريم قاسم، الذي ابتسم في وجه كريم عواد، موافقا على العبور الى الضفة الاخري، قائلا:

الزعيم عبد الكريم قاسم: ياالله نعبر. بس كنت اتمنى العبور مع كل الشعب العراقي الى ضفة السعادة والسلام.

ان اي تكملة او اعطاء وجهة نظر فيما جرى سيجرح النوايا، والاطراء الذي يزيد عن الحاجة لايحتاجه الحال، وعليه سأترك التعليق في امر لا يحتاج اليه.

ولي من الذكريات التي رواها لي أناس اعرفهم، الكثير من المواقف الجميلة لهذا الرجل، أغلبها يتحدث عن ايجابياته، والقليل منها تحسب من السلبيات الطفيفة غير المؤذية التي مارسها. منها المكرمة التي قدمتها ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ لطلبة العراق ـ على أن نعرف بأن هذا النوع من المكارم كانت مثالا احتذت به الحكومات التي اعقبت حكمه. وهي مكرمة النجاح للراسبين او ما سمي في حينه بـ (العبور). وكانت بمثابة التعبير عن الفرح الغامر الذي عم العراقيين بنجاح الثورة. أنا لم أحقد على هذا النوع من المكارم، لاني لم أشمل بها، فالمصادفات شاءت أن أكون من بين الناجحين في المرحلة الابتدائية في عام ثورة تموز ١٩٥٨.

وسأكتفي برواية فيها بعض الطرافة لأحد أقاربي وهو الأسطة كريم نجار البياتي، وكان نقاشا ماهرا يجيد النحت علي الخشب. فصنع اطارا لصورة من الخشب الزان مطرزا بالنحت بما يعرفه النجار من منجزات ثورة تموز. وقرر أو كان قراره مسبقا ان يهديه للزعيم ليحصل مقابلها على رضاه وعلى هدية ستكون ثمينه ماديا باعتقاده تنفعه ليوم قد تميل الدنيا عليه فيحتاجها لذاك اليوم، وفعلا أكمل الـ (الجرجوبة . الاطار) وحملها (ابو غازي، وهي كنية الأسطة كريم نجار البياتي)، وسلمها الى الدفاع، واستلمها منه مرافق الزعيم وصفي طاهر، الذي اعطاه موعدا لمقابلة الزعيم. وفعلا ذهب أبو غازي الى بيته وكان يحلم بذاك اليوم الذي سيلاقي فيه الزعيم.

وصلت فيها احلامه الى تهديم بيته واعادة بنائه كأبسط امنية ستحققها له اكرامية الزعيم. وجاء اليوم الموعود ولبس فيها ابو غازي اجمل ملابسه وذهب لملاقاة الزعيم وفرحه لا يوصف وحين التقاه كان الحديث شجيا والفرح غامرا بينهما، وفي نهاية اللقاء شكره الزعيم على هديته التحفة بنحتها الجميل على الخشب الزان، ومد له بصورة للزعيم كان قد وقعها لأبي غازي كهدية بديلة وقريبة في موضوعها من هديته، خرج بها النجار البياتي، ولا أخفي عليكم انه كان مغتاظا جدا، يولول ويلهج بكلمات قاسية من عدم الرضا. لكنني تأكدت من انها كلمات زعل لا معنى لها، بدليل انه ظل يلهج بهذا اللقاء حتى وفاته في بداية الثمانينيات من القرن الماضي.

ترى أهم الفلسفات في تأريخ الإنسانية، بأن الأفراد على مختلف انواعهم وانتماءآتهم ومستوياتهم، يتطورون بتطور الأفراد الآخرين المتناظرين معهم بالاختلاف، وفق قوانين التطورالاجتماعية ـ وحسب فردريش نيتشه ـ "ينبغي علي القيم التي نضيفها الى الحياة، أن تعمل على السمو بمستوى الانسانية، للوصول الى خلق نوع جديد. وعليه فهم ـ الناس ـ يدخلون فيما بينهم بعلاقات واعية يدخل فيها النفع العام والنفع الخاص معا في اغلب الاحايين، ونادرا ما تكون تلك العلاقات خالية من الفوائد المتبادلة الذاتية ـ الشخصية السائدة بين الناس.

الزعيم . . . في معهد الفنون الجميلة

فاضل خليل

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1848)
السنة السابعة
الخميس (15)
تموز 2010

قاسم مع هاشم الخطاط

المكونات البيئية والفكرية لشخصية عبد الكريم قاسم

د .عقيل الناصري

"هناك شخصيات يتماهى وجودها التاريخي مع الذاكرة الوجدانية، تماما بالقدر الذي يجري استعادتها بوصفها قوة سياسية حية وفاعلة. وهي حالة تشير إلى قيمة الأحياء والأموات في الحياة السياسية، شأن كل ما هو قابل للتطويع والاستعمال في الصراع الاجتماعي. لكنها قيمة محكومة بما فيها من قدرة على التجدد أو التفاعل مع المزاج الاجتماعي وهموم الأفراد والجماعات. وبالتالي فان قيمتها على قدر ما في أفعالها التاريخية من اثر في العقل والضمير الجمعي، أي في الذاكرة والذكرى الاجتماعية والروحية للأمم. وهو اثر قد لا يمكن على الدوام لمح معالمه القديمة، لكن من الممكن تتبع بصماته على أوتار الصراع الحاد، وبالأخص زمن الإنعطافات الحادة في تاريخ الدولة والأمة. وهي الحالة التي يمكن رؤية ملامحها بوضوح في ظروف العراق الحالية، بوصفها حالة نموذجية قابلة للتكرار. وهو الأمر الذي يجعل من دراستها قضية علمية تاريخية وسياسية مستقبلية بقدر واحد... "

تكتنف دراسة شخصية عبد الكريم قاسم الكثير من الصعوبات والإشكاليات، بسبب قلة المعطيات البيوغرافية المتوفرة عنه من جهة، وقلة تكلمه عن ذاته وعائلته من جهة ثانية، ولأنه من أبناء الطبقات الاجتماعية غير المؤثرة ولا من الذين ولدوا في كنف الرغد والمكانة . لذا حاولت جاهداً الوقوف على هذه الشخصية ودراستها من مصادر عديدة متعارضة بل متناقضة في الوقت نفسه [بالطريقة نفسها التي تتجمع فيها مجموعة من الغدران كي تملأ مجرى النهر الرئيس بغية تعميق المقصد الأصلي للسؤال: ترى من هو هذا الشخص، وما مؤهلاته؟] بحيث صاراً مَعْلَماً في الوعي الاجتماعي العراقي وفي الجذوة المتقدة لعقله الباحث في الخيارات المتاحة وحتى تلك الفنتازية منها.

وأعتقد أن تاريخ هذا الرجل قد بدأ، بشكله الفعلي الأرأس، من خلال مساهماته الأولى في حركة الضباط الأحرار عام ١٩٤٨، التي برزت في الساحة السياسية نتيجة عوامل موضوعية وذاتية، للبلد والمؤسسة العسكرية ببعدهما التاريخي. تبلور هذا التاريخ منذ قيادته لفعل التغيير الجذري، وتهيئة التربة للمشروع النهضوي المنتظر، ومساهمته فيه بصورة عضوية فعالة.. فكان له أهمية ووزن كبيران، بغض النظر عن رؤيتنا الذاتوية له، وهما مشتقان بالتحديد من الدور الذي اضطلع فيه وجسده مادياً.. وبالتالي رسم حدود حركة الواقع للدولة والمجتمع العراقي في العصر الحديث.

سنحاول الدخول إلى هذه الشخصية من خلال المنهج النقدي، الذي هو المسار الصحيح لفهم الظواهر من جهة، كما أنه، من الناحية الأخلاقية، تعبير عن دراسة الظاهرة بصورة جدية، إذ من خلال هذا المنهج نستطيع تحديد نقاط القوة والضعف في الظاهرة المبحوثة بعد مقارنتها وتحليلها، وتحديد أبعاد تركيبتها البنائية . وطالما أن دراسة أية ظاهرة يجب أن تؤخذ ببعدها التاريخي المقترن بالمفهوم العلمي.. فيعني هذا، في بعض جوانبه، دراستها في حالة حركتها وتطورها الدائمين، ومعرفة شكلها ومدى تطابقه للمحتوى الموضوعي في حيز وجودها الاجتماعي . كما يعني من جانب آخر، أن الدراسة المؤسسة على النقد في الفضاء الثقافي " ...هو الذي يحفظ فرادة الفرد (وهو أهم أسس الحضارة الحديثة حسب تعبير الوردي) ويؤسس إنسانيته الفعلية، ويوسع جغرافية الحياة المادية والروحية ويحول خصوصاً دون اختزال الفرد إلى تجريد (الهوية السياسية). إن عمل الثقافة اللا نقدية هو صنع مقدسات ومحرمات... ".

وقبيل الولوج في هذا الطريق الصعب في الظرف الأصعب وفي تحليل منطلقات قاسم الفكرية وبيئته المؤثرة.. يجب عليَّ التنويه إلى ناحية مهمة تكمن في:

- أن قاسم كان رجل عمل حسب، يعتمد جوهرياً في مقاييس حكمه على الظواهر من نتائجها سواء أكانت ملموسة أو غير ملموسة. كما أنه لم يكن رجلاً منظراً أو مفكراً مجرداً يبحث في حركة المفاهيم والنظريات وسريان مفعول أواليتها (ميكانيزماتها) وسنن تطورها ومدى تطابقها مع الواقع المادي الملموس، بل هو لم يكن معنياً بها إطلاقاً لا من بعيد ولا من قريب، إلا بذلك القدر الذي يطور فيه نفسه من أجل تحقيق ما كان يدور في ذهنه من تصورات للواقع القادم وإمكانية تحقيقها مادياً. وفي الحقيقة لم يكن قاسم مؤهلاً لهذا الدور [النظري] أصلاً.

- في الوقت نفسه لم يكن رجلاً مصلحاً، يستطيع إعداد مخططات طويلة المدى لأجل بلوغ هدف معين.. أنه رجل عملي في تصوراته وواقعي في ممارساته. وقد ألزمه منطق منطلقه هذا حدود الاختيار الصعب في البلد الأصعب، والمتنوئم والمتزامن مع ظروفه وتعقيداتها، وتركيبته الاجتماعية وتعدديتها. وتعمق هذا الجانب واكتست سماته من واقع حياته في مطلع شبابه واحتكاكه بالمتغيرات الحياتية التي مزقت شرنقة السكون الاجتماعي والنمط التقليدي للحياة وتزمتات كياناته الصغيرة (العشائرية) التي تدور حول وحدة الدم والعصبية .

كان قاسم من الناحية الموضوعية نتاج البيئة العراقية عامةً والبغدادية على وجه الخصوص وروح زمن تطورها، المتشبع بقيمها الاجتماعية والنفسية، بسلبياتها وإيجابياتها. ذلك الواقع الذي شهد تطوراً ديناميكياً منذ مطلع القرن المنصرم ، وازدادت إيقاعاتها بعد تكوين الدولة العراقية وبروز الحركات الاجتماعية وبداية تكوين الفئات الوسطى وصعود العسكر للسلطة، والتداول الجديد للغة السياسية التي أرستها مجموعة حسين الرحال في البدء، وطورتها الحلقات الماركسية الناشئة، وما أشاعها جماعة الأهالي إذ تم " استحداث لغة تعبير خاصة بها ثم تمكنت من استحداث لغة سياسية معاصرة في العراق وتطوير هذه اللغة. مما كان له دور مهم في تطوير الفكر السياسي وتنضيجه عن طريق اللغة ذاتها. وقد أمتد ذلك من بداية الثلاثينيات حتى ١٤ تموز ١٩٥٨ ". ثم جاءت الجماعات اللبرالية واليسارية لتكسي هذه اللغة وتغنيها بمضامين جديدة ومفردات طبقية، وأخرى ذات نكهة تحررية للوطن والإنسان. وقد تأثر بهذه اللغة ومضامين مفرداتها الاجتصادية والسياسية والثقافية، فئات اجتماعية واسعة لم تقتصر على الطبقات الوسطى بكل فئاتها، بل ضمت حتى من أبناء بعض العوائل الأرستقراطية القديمة ونخب الحكم، كذلك أبناء الطبقات

عراقيون من زمن التوهج
العدد (1848)
السنة السابعة
الخميس (15)
تموز 2010

الاجتماعية الفقيرة والكادحة. لقد مثلت هذه اللغة الجديدة و مضامينها، محوراً نضالياً لحراكها الاجتماعي وصراعها الطبقي في مختلف تجلياته وساحات تواجده. وكان الكم الكبير من زعماء المرحلة الجمهورية، وخاصةً الأولى، وجملة من رواد النهضة العراقية المعاصرة قد تأثروا بمضامين هذه اللغة التي اغتنت هي الأخرى بنشاطهم العضوي الفعال في مختلف الحقول الاجتماعية والسياسية و الثقافية.. كان منهم عبد الكريم قاسم، كما تدلل الوقائع الحياتية الأولى لنشأته.

من المعلوم أن الحياة المدينية في عراق تأثرت ما بعد الحرب العالمية الأولى، التي عاش في كنفها الشاب قاسم، بالنزعة العصرية التي انصبت إحدى مضامينها الخاصة، بفكرة المساواتية الاجتماعية والتحرر والعلمانية التي أرستها جماعة الرحال في البدء، وبالديمقراطية التي تبنتها جماعة الأهالي، وبالدعوة للحرية الفردية التي بشرت بها، بصورة محدودة الجماعات اللبرالية الأولى، ومن ثم الاهتمام بالفكر الطبقي الذي تبنته في الثقافة العراقية الحلقات الماركسية قبل تبلورها وأشاعه من بعد الحزب الشيوعي لاحقاً، وتطلع إلى الانتماء القومي العربي دون التخندق فيه.

هذه النزعة العصرية ساهم فيها بالإضافة إلى ما ذكر من حركات، شخصيات علمية ومثقفة عديدة، ليس من السهولة حصرها، كان منهم حتى بعض رجال الدين المتنورين هبة الدين الشهرستاني ومحمد رضا الشبيبي وبعض ضباط الجيش الذين سبق لهم أن خدموا في الجيش العثماني، كالرصافي مثلاً وكذلك من أجنة القوى اللبرالية التي مثلها آنذاك الشاعر جميل صدقي الزهاوي وغيره. رافق كل ذلك بدايات ظهور أجنة الطبقة الوسطى وفئة الصناعيين التي هي أكثر استعداداً من الفئات التجارية والملاك الزراعيين، لتقبل الديمقراطية اللبرالية، وذلك بسبب طابع نشاطها الاقتصادي، الذي يرتبط جدلياً بمرحلة تاريخية ومنظومة سياسية ثقافية وبسياقات من التفاعل المتبادل. وعاضد هذا الظهور تبني حركات المتنورين لفكرة التصنيع باعتبارها وسيلة أرأسية للخروج من التخلف بكل مدياته الاقتصادية والسياسية والثقافية. علماً بأن هذه الحركات والتنظيمات آنذاك كانت ضعيفة، وهذا مرتبط بطبيعة نشوء المجتمع الحديث وماهية مركزية الدولة (الزراعية) النافية الطبيعية للتجمعات العشائرية المتشظية وظروف تشكل الطبقات والفئات الاجتماعية.. لأن المجتمع العراقي كان يشكل، ولا يزال إلى حد كبير، وحدة أقل تجانساً من الناحية الاقتصادية والإحساس بالهوية الوطنية. إذ كان الاقتصاد لم يبلغ مستوى الوجود لذاته من الناحية الموضوعية ، كما يقال فلسفياً.

كما ساهمت الظروف العامة التي سادت العراق في النصف الأول من القرن المنصرم في خلق وعي وفكر متقدمين مقارنة بما كان سائداً، تمثلا في النزعة نحو الديمقراطية اللبرالية وأعمدتها الثلاثة: حرية التعبير؛ حرية تشكيل الأحزاب؛ والتداول السلمي للسلطة، بترابطها مع الواقع المادي وزمنيته، التي كانت اختياراً واعياً لبعض شرائح فئة المثقفين، رغم انعدام القاعدة الاقتصادية " اللازمة لكينونته. والسبب في ذلك بطبيعة الحال، يعود إلى أن الديمقراطية اللبرالية ليست إفرازاً فكرياً تاريخياً يحتاج حتماً إلى مقومات اقتصادية/اجتماعية محددة وإنما هي كأية فكرة جديدة ، تمثل اختياراً واعياً. وهذا الاختيار الواعي سيقع أمر نقله أو تمثله، بل وحتى أمر نقده على كاهل المثقفين، الذين سيؤدون، نتيجة جملة عوامل، وظيفة استدعاء القيم الجديدة لمجتمعهم القديم (لأنهم فئة بإمكانها أن تنقل الجديد نتيجة لما تملكه من وعي وإدراك) ". وبما طرحته الحياة على عاتقهم آنذاك في شكلها الجنيني، والذي لم ير تجسيده المادي إلا بعد ثورة تموز، لأجل "... دخول العراقيين التاريخ كفاعلين عضويين لا تابعين متخلفين... ضمن أطر مشروع ثلاثي الأبعاد: وضعي – عقلاني– علماني

ضمن تفاعل الأهداف التنويرية المنطلقة من ثلاثية: الفرد – العقل – الطبيعة ".

لقد وجدت هذه الدعوات الجديدة صداها لدى كم واسع من الجيل الجديد بفئاته المتعلمة و المثقفة، وأخذت تنظم ذاتها في حركات وتجمعات وأحزاب، خاصةً بعد توسع الطبقات الوسطى عددياً وبالتالي نوعياً، بعد الحرب العالمية الثانية. وازدادت هذه الوتائر في نهاية المرحلة الملكية وأصبحت أحد الأسباب الأرأسية للأزمة العضوية التي ضربت النخبة الحاكمة التي فجرتها ثورة تموز.

لقد ساهمت هذه النزعات العصرية في خلق مؤسسات الدولة الحديثة من جهة، لكنها نمت روح المعارضة من جهة أخرى، رغم أن بعض فئاتها سلكت التعايش مع حاضنة مصالحهم المتمثلة في قوى الاحتلال والدولة الجديدة.. في حين بقيت فئات أخرى، على نمطها النازع للتحرر من التبعية للدولة المحتلة وتلك المشكلة فعارضتهما وناضلت ضد سلوكها السياسي ونزعتها الطبقية وعلاقاتها مع بريطانيا، من خلال الصحافة أو الأحزاب العلنية وتلك السرية الناشئة، لأن فعل العصرنة ذاته، المتمثل بالدولة ووظائفها الاجتماعية، قد خلق التناقض بين المجددين والتقليديين.

أما من الناحية الذاتية فقد بدأ قاسم في مطلع شبابه، يخطو خطواته الأولى بالتثقيف الذاتي، حسب الظروف المتيسرة، إذ لم تشف الكتب الدراسية غليله المتعطش إلى فك طلاسم الظواهر الاجتماعية الجديدة التي كانت تطرحها الحياة بقوة في وقتها، وتنادت لها القوى الاجتماعية المجددة التي بدأت بالبروز المؤثر منذ منتصف العشرينيات، كان منها: مسألة الاستقلال السياسي والتحرر؛ الانتداب والأزمة الاقتصادية؛ قضايا التخلف والفقر المزمنين؛ المرأة وتحررها الاجتماعي؛ مسألة الأرض والفلاح؛ تجسيد الوحدة العراقية والمواطنة؛ توزيع الثروة وتجسيد العدالة النسبية .

كان النظام التعليمي في عراق مطلع القرن المنصرم، غير وافي إذ تلقن مواده بصورة مجردة ، والأهم لم تكن مرتبطة بالحياة والواقع المعاش ومضامينه، كما كانت ذات أبعاد مثالية غير مستنبطة من تاريخية ومنطلق المجتمع العراقي، حيث كان الطالب آنذاك " يدرس في جميع المراحل من التاريخ الأوربي أربعة أضعاف ما يدرسه الطالب البريطاني من تاريخه وتاريخ أوربا..." وهذا يشمل مناهج الجغرافية "... فخصص كتابا يشمل دراسة جغرافية أوربا و أقطارها مع إلزامهم برسم خرائط تلك الأقطار ومعرفة تفاصيل قد لا يتوفرون على معرفة مثيلها في الجغرافية العربية ... ".

هذا الوضع المدرسي كان يكمله قلة توفر المصادر العلمية والكادر المؤهل. لذا التجأ الواعون من الجيل الجديد إلى التثقيف الذاتي قدر الإمكان.. من خلال البحث عن الجديد من المصادر الملبية لطموحاتهم المعرفية، التي كانت تأتي، سراً أو علناً، للعراق من خلال مصادر متعددة منها: الكتب والمجلات والصحف العربية والأجنبية ؛ من الاحتكاك بالقادمين من الدول الأوربية ذوي الفكر الاشتراكي والتقدمي؛ من العمال الهنود والإيرانيين المنتظمين في حركات سياسية ذات طابع تقدمي؛ ما ينقله زوار العتبات المقدسة؛ ومن العراقيين، خاصةً الطلبة، العائدين من الخارج

– لقد نهل الشاب قاسم ومن ثم الطالب فالمعلم والضابط، وأغترف بحسن سياق ودقة من تلك الثقافات القادمة إلى المجتمع العراقي بعد تأسيس الدولة .. كما اهتَمَ في رصد الظواهر الاجتماعية التي كانت تفرزها المحلة البغدادية في صراعها الحياتي والتقاط ما كان جديراً بالتأثر به. إذ ولد قاسم في المحلة البغدادية و مارس طفولته فيها، وتبلور شبابه هناك حيث التجارب الحياتية الأولى وتجلدت شخصيته في هموم محيطها وتعلم الحيطة منه. كما استلهم أحزانها وأفراحها، أحلامها وأساطيرها، وفهم تعدد أعراقها وثقافاتها.. مما ولدت لديه منظومة أفكار وقيم سلوكية ذات منطق بناء انفتاحي وليس انطوائيا حسب فكر سلامة موسى، كان منها فكرة التسامح والرأفة، بغض النظر عن انتماءاتهم لأنهم جميعاً [نظراء في الخلق]. لقد عاش صباه وفتوته بشقاء وحرمان ولازمت بيته وحياته الحاجة. لقد منحته هذه الحالة درساً عملياً بليغاً أثرت بإيجابية في تشكيل مضامين سلوكه الاجتماعي ومنطلقه الفكري وتركيبته النفسية فكانت العدالة واجتثاث الفقر عنوانها. لقد [فولذته] المحلة البغدادية ضمن ظروفها الزمكانية وأجواء علاقاتها وصراعاتها، الطبقية والدينية والأثنية والمذهبية، لذا تعمق منطلقه المتمحور في عراقيته وانعكس تراتيبة أولوياته السياسية من قبيل: أولوية الانتماء الوطني على الولاءات الدنيا؛ نبذ التعصب؛ اجتثاث مقومات القهر والاستلاب والتسلط ، حتى تشبع ب "... ميزة المساواة بين جميع قطاعات الشعب مع النتيجة بان الشيعة والمسيحيين واليهود وأفراد الاقليات الدينية المختلفة الأخرى في البلاد كانت تشعر بالارتياح خلال حكمه...". وعليه يمكن اعتبار بيئته العائلية والمحلة البغدادية المحطة الأولى في صياغة منطلقاته الفكرية بشكلها العام.

– أخذ الشاب عبد الكريم قاسم، من خلال المعايشة الاجتماعية وجماعة الصحبة والبيئة المدينية (الحضرية) يتقصى أثر مجموعة [حسين الرحال]، الذين كان يراهم يجتمعون في مقهى النقيب في محلة قنبر علي بالقرب من محل سكناه في أواخر العشرينيات، وكان صديقه المقرب رشيد مطلك من بين مريدي هذه المجموعة، ومن خلاله تعرف على بعض أعضائها وتلامذتهم الذين في عمره، من سكنة المحلة ذاتها أو كانوا طلاباً في الثانوية المركزية حيث كانوا يدرسون. وقد تقرب روحياً ونفسياً أكثر فأكثر حتى بدأت تميل معالم روحه نحو الإصلاح في تلك المرحلة من عمره، وتبلورت نشأته السياسية وفكره الاجتماعي ببعده الإنساني. فكانت هذه محطة قاسم الثانية في منطلقاته الاقتصادية والفكرية.

– أما المحطة الثالثة، الأكثر تأثيراً، حسب قراءتي لسيرته والمشتقة من السابقة، فقد كانت تتمثل بتأثره الروحي والمعنوي، بأحد الرواد الأوائل للفكر المساواتي والتقدمي (الاشتراكي) الذي أصبح بمثابة (معلمه الروحي)، وهو الأديب مصطفى علي (١٩٠٠–١٩٨٠)، الذي كانت تربطه علاقة صداقة قوية جداً بعائلة قاسم.. إذ كان والد عبد الكريم قد عمل في ذات الورشة التي يعمل فيها والد مصطفى، الحاج علي محمد القيسي. وبالإضافة إلى ذلك كانت لمصطفى علي علاقة صداقة حميمة بابن بنت عمة عبد الكريم قاسم، الضابط الطيار محمد علي جواد، أول قائد قوة جوية عراقية والمشارك الرئيسي لبكر صدقي في انقلابه عام ١٩٣٦. إذ بعد عودة أسرة عبد الكريم من الصويرة لبغداد عام ١٩٢٤، كما يقول مصطفى علي: " انتقلت إلى جوارهم في محلة قنبر علي وعبد الكريم صبي في عهد تكوينه النفسي. فكان الفتى يأتي يومياً إلى دارهم ويجلس عند قدمي مصطفى علي الذي يكبره نحوا من ١٤ عاماً ليستمع إلى أحاديثه وآرائه. وظل عبد الكريم ملازماً لصاحبه معجباً به، آخذاً عنه حتى أصبح معلماً "، الكثير مما كان يبشر به مصطفى علي ومجموعته الفكرية ويدعون إليه من قبيل: الفكر المتحرر واستقلال في الرأي والصراحة في القول والجهر بالعقيدة، وما تفقه به من علوم اللغة والأدب والممارسة السياسية النظيفة...الخ.

وقد تطورت هذه العلاقة بأستاذه مع مرور الزمن، وتعمقت أكثر عندما عمل كلاهما في مدينة البصرة في مطلع أربعينيات القرن المنصرم كلٌ في مجاله.. إذ كانا يتناقشان بالمستجدات الحياتية على الساحتين الفكرية والسياسية، إذ ولع قاسم بالرصافي وأدبه وهذا بتشجيع من أستاذه. وازدادت الثقة بينهما ضمن ظرفها الحسي حتى بلغت مرحلة كان يستشيره في كثير من الأمور، حتى تم إشراكه في الوزارة الأولى للثورة. هذه المحطة الفكرية في سياق تحقق صيرورتها في نفسية قاسم، قد أنضجت الجوانب المعرفية لديه واختيار التوجه السياسي وتبني النظرة الاجتماعية للحياة وفلسفة

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1848)
السنة السابعة
الخميس (15)
تموز 2010

الوجود.. حتى أصبحت تشكل الهاجس الأرأس لعبد الكريم قاسم وسياسته وموقعه الشخصي على رأس السلطة الجديدة، في تركيبتها ومضامينها، وكانت بمثابة الصيرورة الدرامية لفكر قاسم العملي. إذ " أهتم المرحوم عبد الكريم قاسم... بشعارات الحركة الوطنية كما هدتهم إليها ثقافتهم وايديولوجيتهم وأوضاعهم الطبقية وموقعهم في السلطة وكان عملهم في تحقيق هذه الشعارات والمطاليب وقيامهم بالنضال في سبيل تنفيذها وأسلوبهم الذي اختاروه ذلك مما ميز الثورة في العراق وصبغها بلونها الخاص... ".

– لقد تعمقت هذه النظرة وذلك الأسلوب من خلال مدى تأثره بجماعة الأهالي التي مثلت المحطة الرابعة في منطلقات قاسم الفكرية .إذ تدلل الوقائع التاريخية أن قاسم قد تأثر بدرجة كبيرة بهذه المدرسة الفكرية منذظهورهافي الثلاثينيات،وبالاطروحات الفلسفية التي كانت تدعو إليها حتى قبل أنه كان يتبرع للحزب الوطني الديمقراطي من خلال رشيد مطلك الذي كان عضواً في الحزب في الخمسينيات. اشتدت نزعة قاسم بالتأثر بالأهالي بعد تكوين الحزب الوطني الديمقراطي عام ١٩٤٦ وكان مواظباً على تتبع أفكار الحزب وتوجهاته العامة والأقرب إليه وإلى عراقيته وإلى أفكاره الطبقية. والموقف من الإستعمار؛ التحرر الاجتماعي ؛ ماهيات العقد الاجتماعي؛ دمقرطة الثقافة؛ الموقف من الطبقات المنتجة للقيم المادية؛ وغيرها من المعالجات الفكرية والسياسية وتجلياتها العملية. ولهذا السبب.. كان قاسم يتصل بالحزب الوطني من خلال (رسول الثورة) رشيد مطلك، ويخبره بموعد الثورة بل يكلف أهم عضويين في قيادة الحزب للإتصال بعبد الناصر والقوى التقدمية في سوريا.. وهذا ما سنتطرق إليه لاحقاً. كما أن برنامج الثورة كاد يتطابق وما يدعو إليه الحزب، في المجالات الاقتصادية والسياسية. لهذا يمكنني القول أن ثورة ١٤ تموز كانت ثورة البرجوازية الوطنية والحزب الوطني الديمقراطي.

– أما المحطة الخامسة في المنطلقات الفكرية لقاسم فقد تمثلت سواءً في تجربته الحياتية الاجتماعية وجماعة الصحبة (المهنيون منهم والمثقفون) أو دراسته النظرية العليا (الأركان) في بغداد، ودورة القادة الأقدمين في لندن وقد تعمقت لديه فهم أواليات مهنته العسكرية.. التي قرنها بالممارسة العملية لتطبيق هذه الأبعاد النظرية.. فكانت ممارساته في الحرب الفلسطينية الأولى حقل تجريب لهذه المعارف، والتي خرج منها كمَعْلَمْ في المؤسسة العسكرية العراقية. ومن الملاحظ في حياة قاسم العسكرية أنه كان لا يود الخدمة في المدن الكبيرة.. مما اكسبه فهم الحياة في واقعها المادي وصراعها الاجتماعي. كما أن سفراته إلى خارج العراق.. كانت محل دراسة له ولواقع تطور هذه البلدان.. ولمعرفة كيفية حل إشكاليات الخروج من التخلف المزمن والقضاء على الفقر.

وتأسيساً على ما ذكر، يمكننا القول أن قاسم كان قد تكيف بشكل واع في بعض الجوانب وغريزي في بعضها الآخر، بما كانت تطرحه الحياة السياسية والفكرية. إذ تمتع قاسم بتفكير عملي وسعى إلى تحقيق أهدافه بالوسائل المتاحة وقدرته على تحقيقها.. وإلا التكييف مرحلياً مع متطلبات الظرف الكابح ليعاود النشاط ثانية، إذا لم يستطع تحقيقه في حينه.

هذه الميزة السلوكية وسمت حياته وقد استنبطها من طبيعة العلاقات الوظيفية ذاتها.. ومن عدم قدرته، في طفولته وصباه، من إشباعها نظرا لسكون الحاجة داره والحالة المادية للعائلة.. فتولد لديه الصبر من المعاناة ومن درب الآلام وتولدت قوة الإرادة من سطوة الظروف والقمع والاستبداد الاجتماعي السائدين، طالما أن الإنسان نتاج حضارته، التي دخلت برغبته أو أدخلت إليه بحكم تواجده الاجتماعي، ومن ثم تحولت إلى جزء من ذاته. طالما أن الإنسان هو نتاج العلاقات الاجتماعية التي تنشأ في الجماعات البشرية، والوعي وتجلياته، وهو صفة ملازمة للنضج، هو وظيفة الإنسان العليا. ومن هنا فنرى أن الظروف القاسية التي صادفها قاسم في طفولته أثرت في منظومته الفكرية والنفسية وفي تصوراته الحياتية.. وقد تأثرت بدورها وتغيرت مضامينها ونضجت وتبلورت تدريجياً، نظراً لخضوعها لمؤثرات عديدة صادفها في مراحله اللاحقة.

كان قاسم ابن المدينة، والبغدادية على وجه التحديد، وقد سهل انتماءه المديني التفاعل مع الفكر الجديد الذي بدأ يتسرب، بعضه سراً، إلى المجتمع العراقي. كذلك اندمج مع الطروحات اللبرالية في بعدها الوطني، النابذة للولاءات المحلية التقليدية كالروابط الأسرية، أو المهنية أو المناطقية.. الخ. وهكذا خرج قاسم من المحيط المحافظ وثقافته التقليدية ومن سطوة عرفه المتخلف إلى المحيط المديني وفضاءاته الفكرية الواسعة وثقافته العصرية، التي كانت الأحزاب الجديدة ومؤسساتها الاجتماعية تبثه في الجيل المتعلم الجديد وتغذيه باستمرار، سواءً الوطني منه أو/و القومي. هذه الميزة توضحت بكل جلاء من خلال ممارسته وتفاعله مع الحياة في مدياتها اللاحقة وفسحت له المجال الواسع حتى في الخروج من مهنته العسكرية، إلى العالم الثقافي الأوسع من خلال دراسة العلوم التاريخية والأدبية. وكان استيعابه للغة الإنكليزية قد أهلته هي الأخرى في سبر غور معارف مهنته و صقل ثقافته العامة.

من جهة ثانية رسمت الحياة المدينية لديه فكرة مهمة جداً مثلت لاحقاً إحدى حلقات فكره العملي، تمثلت في الإبتعاد عن الانتماءات العشائرية والقبلية وبعيداً ولاءاتها ومنظومة قيمها وأعرافها التي تنتمي إلى (العصر) العشائري.. حتى أنه اكتفى بالاسم المجرد من العشيرة أو القبيلة، وهذا ما يوسم قلة صغيرة جداً من السياسيين العراقيين، خاصةً لذوي الفكر الديمقراطي واليساري بصورة عامة، ليس لعدم انتماء أغلبهم لمثل هذه الكيانات قدر ابتعادهم الواعي عن هذه الولاءات المتناقضة مع فكرهم الاجتماعي وانتمائهم الوطني الذي كانوا يؤسسون له.

هذه الظروف أثرت بقوة في رسم البعد العصري للشاب عبد الكريم قاسم الذي تفاعل معه.. وهذا ما تجلى في سيرته اللاحقة عندما كان معلماً، ومن ثم ضابطاً مهنياً، خاصةً أثناء حرب فلسطين الأولى حيث ساهم بفعالية مع أول تنظيم غائي للضباط الأحرار. يقول قاسم أنه: " منذ تخرجي في الكلية العسكرية بدأت وأخواني أبث روح التضحية بين أصدقائي ومعارفي من الضباط، وبمرور الزمن وبصورة تدريجية حصل التقارب وبدأت الاجتماعات وتوسعت وصارت على شكل مؤتمرات حتى إستقرت القضية على حال وصارت إلى خطة تعتمد الصبر والكتمان فاثمرت ليلة ١٤ تموز الخالدة... ".

ومن استقرائنا لحياة قاسم يمكننا القول بأنه في هذه الفترة كان عسكرياً ذا أهداف سياسية، نظراً لغلبة مكونات الصفة الأولى على نشاطه وتفكيره، لكن هذه المعادلة بدأت بالتغيير بعد فترة من الزمن وذلك لتعمق الخبرة والممارسة والثقافة لديه وخاصةً العسكرية منها والوضوح في الهدف السياسي والغائية المراد بلوغها والنضج العملي لوقائع الحياة السياسية لتصوغ منه في نهاية المطاف: سياسياً في لباس عسكري، وليكن شخصاً عضوياً وفعالاً. إذ أوضحت التطورات الحديثة في نطاق القيادة العسكرية مدى " إرتباطها بالسياسة. فبينما كان القائد العسكري قديماً بعيدا عن المجال السياسي، فإن التطورات الحضارية قد عملت على الربط فيما بين النشاط العسكري والنشاط السياسي. لقد تكشفت الحقيقة عن أن القائد العسكري البعيد عن السياسة يكون مغلق الفكر، كما يكون التفاهم بينه وبين السياسيين متعذراً. ولكن القائد العسكري إذا كان متعاوناً مع رجال السياسية ومتفهماً لأهدافهم وستراتيجيتهم وخططهم، فإن بصيرته السياسية تضيء له الطريق العسكري، كما أنه يكون خليقاً عندئذ بتقديم المشورة الصائبة التي تتأخى وتتكامل فيها النوازع الحربية والنوازع السياسية ".

لقد تميز قاسم بحالة تناقض الكثير من الافتراضات والافتراءات التي قيلت بحقه، منها أنه كان ميكافلياً في سلوكه. في الوقت الذي تدلل تصرفاته العملية على أنه كان يسترشد بمبدأ يناقض الميكيافلية بالأساس، مضمونه أن [الهدف النبيل يتطلب وسائل نبيلة]، وليس [الغاية تبرر الوسيلة]، لأني وجدت أنه كان على قناعة كبيرة جداً من أن مشاركته السياسية وإدارته للصراع الاجتماعي كانت ملتزمة بجملة من القيم (إن شئت سمها مثالية) بعضها كان ذات بعد تاريخي وأخرى آنية وثالثة ذا بعد مستقبلي، وكانت بمثابة الروح لحركته الاجتماعية التي وفرت له، بدورها، جملة من الدوافع السلوكية والنفسية ورسمت له إيقاع حركته العامة وحيز تحركه. كان من هذه القيم: الاستقلال السياسي، النظام الجمهوري، العدالة الاجتماعية والمساواة النسبية، الرقي الحضاري والحداثة، اجتثاث الفقر، الوحدة العراقية وهويتها، الانتماء إلى الأمة العربية، إنصاف المرأة، نصرة الضعيف، العفو والتسامح..الخ. بل نحت قيماً لن يألفها المجتمع الذكوري/القبلي، من قبيل [عفا الله عما سلف]،طورها لاحقا إلى [الرحمة فوق القانون] التي تمثل سماء المجتمع المدني والسلم الاجتماعي. وهو منهج بقدر ما هو أخلاقي بذات القدر ذو جذور إنسانية عميقة نحتاج إليه دوماً لتطهير الذات الجمعية، اليوم أكثر من الأمس، أنه أحد العتلات الرئيسية في تعميق فكرة التسامح و شيوعها.. إذ لم يأخذ الزعيم قاسم بفكرة الإسكندر المقدوني(قطع العقدة بدلاً من حلها) التي اتبعها كل الحكام الذين جاءوا من بعده بعد اغتياله والطرد القسري لثورة ١٤ تموز في شباط ١٩٦٣.

كما كان من أهم ميزات قاسم وهو الضابط (اختصاصي محترف للعنف) تكراره المستمر وبأعلى صوته السياسي المقولة المشهورة (الجيش فوق الميول والاتجاهات)، بغية الحفاظ على ذات فعل التغيير (الثورة) وهوية المؤسسة العسكرية وتحديد مهمتها المركزية، وكذلك كبح جماح الانقسامات في أخطر مؤسسة في الدولة وللحد من انقلاباتها العنفية، وإلغاء ما أمكن من ثقافة وممارسة العنف المادي. كما نستطيع، من سلوكية قاسم العملية، استقراء جملة من المبادئ السامية التي تعبر في حد ذاتها عن مثل حضارية ذات بعد أنساني تنافي مع الكثير ما كان سائداً من قيم اجتماعية مثل: " الرأفة؛ النزاهة [٣]؛ الزهد في الحكم؛ عفة اليد؛ المساواة أمام القانون؛ التسامح؛ الرحمة فوق القانون؛ كما أنه لم يستعمل أساليب غوغائية لردم الهوة السحيقة بين حقائق الواقع والأماني المراد تحقيقها؛ ولم يلعب على خيبة الأمل الكاذب، بل حاول تحقيق ما أمكن تحقيقه رغم الصعاب وعدم الاستقرار". كما أنه لم يعتمد على الولاءات الطائفية والمناطقية ورابطة الدم، وانطلق من أولوية عراقيته دون التخندق فيها؛ وأمن بإن خدمة الشعب غاية مقدسة... الخ .

ومن الضروري الإشارة إلى أن قاسم بدأ يتلمس الوعي الاجتماعي والحضاري في ظرف جداً حساس من تاريخ العراق المعاصر، يكمن في أن منظومة القيم والأعراف الاجتماعية وقواها وسلطتها التقليدية، بدأت تتراجع، مؤذنةً للجديد بالولادة العسيرة، فكانت الجمهورية الأولى بمثابة مرحلة انتقال سيصاحبها حتماً الكثير من الصراعات والاخفاقات، من الأزمات والاضطرابات، لأنه لا القديم راغب في أن يخلي الساحة ولا الجديد قادر على ملء الفراغ.

بدأت البواكير الأولى لأفكار الشاب قاسم بالتكوين في ظروف اجتماعية سياسية بالغة التعقيد وفي مرحلة اتسمت بحدة الصراع في الريف والمدينة، بين الأفكار القديمة والجديدة، بين القوى التقليدية وتلك الحديثة.. في هذه الظروف بدأ

قاسم مع السياسي البريطاني ناتنغ

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1848)
السنة السابعة
الخميس (15)
تموز 2010

قاسم تثقيف نفسه بغية إيجاد تفسيرات للظواهر الحياتية الجديدة، وفك طلاسم المفاهيم الجديدة التي أخذت تغزو عقل المتعلمين والمثقفين العراقيين آنذاك بصورة غير معلنة. وكان مصدر هذه التثقيف ليس تلك الأدوات القديمة بل ما بدأت تبثه الموجة الجديدة من رواد الفكر المساواتي التقدمي والفكر اللبرالي الديمقراطي، رغم ضعفهما، من آراء وتفسيرات، من نظرات جديدة للحياة وطبيعة الحركة الاجتماعية، من تحرر للعقل والروح، للفكر والثقافة، طالما " ليس من السهل أن يضع الفرد مسافة بينه وبين ثقافته وبين واقعه وروحه، أو بين نفسه وبين أفكاره. فالفرد يولد وينمو و يعيش في وسط يلتقي منه مبادئ للتفكير وقواعد للسلوك تشكل في جملتها (الثقافة الاجتماعية) لأهله وعشيرته أو الحياة الروحية لمجتمعه، ومن هذه المبادئ والقواعد ما يؤلف الدين ومنها ما يشكل بقية عناصر الثقافة الاجتماعية كالأعراف والعادات والتقاليد والخيال والادعاءات، صعوداً إلى عناصر (الثقافة العالمة) الممثلة بالإيديولوجية والفلسفة والعلم والأدب والفن. وهذه العناصر بالجملة هي العيون التي يرى الفرد الأفراد والجماعات من خلالها أنفسهم والآخرين والحياة والتاريخ والطبيعة...".

في الظروف البيئية الأولى التي رأى قاسم فيها الحياة وتنفس منها النكهات الاجتماعية، بما تحمل من منظومة قيم متناقضة ومتصارعه، تولدت لديه الطموحات الأولى لتجاوز واقعه الاجتماعي والتخلص من العوز.. ليتطور هذا الطموح لاحقاً، إلى حالة ليست فردية بل ذات منحى اجتماعي جمعي تضم في ثناياها دائرة واسعة من الفئات والطبقات، جامعها المشترك هو التخلص من العوز والحاجة والتحرك في حيز الواقع الاجتماعي الحي وليس الرمادي والخروج من المكان (الطبيعي) للسلم الاجتماعي الذي أفرزته عقود وعقول التخلف.

إن دخول عناصر جديدة للحياة الاجتماعية بعد تكوين الدولة العراقية وبروز الاتجاهات الفكرية المختلفة وتوفر تحسن نسبي في ظروف المعيشة وانتشار التعليم.. الخ من الظروف، التي أدت بشكل طبيعي، إلى رفع مستوى الطموح لدى النابهين من الجيل الجديد، حتى أصبح من المستحيل إبقائهم في مواقعهم التقليدية أو يعيدون إنتاج أنفسهم على وفق السنن القديمة في ظل زيادة معدلات الحراك الاجتماعي. هنا لابد من ربط هذا الاستنتاج بما كان عليه عراق نهاية العشرينيات من القرن المنصرم وما شهد من حركة فكرية ذات طابع تحرري ومساواتي ،مثلها (جماعة حسين الرحال)، وأخرى سياسية مثلها الحزب الوطني العراقي وتياره اللبرالي ، اشركنا ضمن عملها ولأول مرة:

- العمال الأجراء وأصحاب المهن في الخريطة السياسية، حيث نزلوا بقوة في المشاركة الواعية وبتعضيد من القوى اللبرالية والوطنية وتجلى ذلك في مطالبتهم بتكوين منظماتهم المهنية المستقلة، والدفاع عن حقوقهم وتنظيم علاقاتهم؛
- الطلبة، الذين ساهموا منذ عام ١٩٢٨ وأول مرة في الفعل السياسي، حتى أمسوا من روافده الأساسية منذ ذلك الوقت وحتى الآن.

في تلك الظروف عملت النخبة السياسية

الحاكمة في إدارتها للصراع الاجتماعي المعقد، إلى عدم توفير الوسائل الشرعية لتحقيق طموحات هذه الفئات الاجتماعية وحرمانهم (المطلق والنسبي) من رفاهية الحياة الخالية من الفقر والجهل والمرض والمجاعة والتهميش. مما ولد الكثير من الاختناقات والصراعات الداخلية، التي تعمقت نتيجة تبعية السلطة للقوى الخارجية (بريطانيا). مما أشاع الإحباط لدى الأفراد الطامحين والقوى الاجتماعية المتعلمة، فكانت البداية للأزمة العضوية التي سكنت النظام الملكي لحين سقوطه في ١٤ تموز، والتي كانت أحد أهم أسبابها. لأن هذه الإحباطات اقترنت بالصراع على جميع الصعد السياسية والاقتصادية والفكرية وتجلياتها الحياتية، فأصبحت سبباً ونتيجة، إذ وفرت التربة الخصبة لعدم الاستقرار وأنتجت حلقات من الدمار المزمن لا يزال يعانيه المجتمع العراقي.. كان واحداً منها الإخلال بالتمثيل الجمعي للتركيبات الاجتماعية، وعدم ترسيخ الهوية الوطنية المُوَحدة وبالتفاوت الطبقي على المستويين الاجتماعي والجغرافي.

وهكذا نرى أن قاسم قد طور نفسه بدرجة كبيرة جداً في هذه المرحلة الممتدة من وعي ذاته وإلى مرحلة ممارسة السلطة. أي هنالك مرحلتين من التحول على المستوى الفكري لدى قاسم

- الأولى هي قبيل قيادته للسلطة؛
- والثانية عند ممارسته للسلطة.

لقد كان قاسم في المرحلة الأولى والتي توقفنا عندها كثيرا تمثل البدايات الأولى للتحولات الفكرية.. برغم أنه سبق أن مارس شيئا من السلطة بحكم كونه قائدا لوحدات عسكرية تتناسب ورتبته.. لكن هذه القيادة ذات طابع عسكري تختلف جذرياً عن القيادة السياسية للبلد وما تتطلبه من مهارات وكفاءات ووعي للضرورات الاجتماعية وتلمسها وتحديد سياقاتها اللاحقة، التي برزت بقوة وبشكل دراماتيكي بعد الثورة ، نتيجة لتغيير أسس النظام الاجتماعي وطبقاته القائدة وطموحاتها وأفق تحققها. كل هذه كانت بمثابة تسييس جديد للواقع وبالتالي فهي ممارسة واعية.. ومع هذا التسييس الجديد نسبياً انبثقت رؤية فكرية جديدة للواقع من جهتين موضوعية وذاتية، صقلت ممارسة قاسم لفنون إدارة الصراع الاجتماعي، بغض النظر عن مدى صوابها ونجاحها.. لكنها حسب رؤيتي كانت تتماشى مع الواقع المادي لعراق تلك المرحلة وزمنيتها، ولم تقفز عليه وتحرق مراحل تطوره.. طالما لقوانين التطور والصراع استقلاليتها الموضوعية.

لقد كيَّف الشاب قاسم ذاته كغيره، ضمن هذه الظروف، بين الغاية التي كان يصبو إليها على الصعيد الفردي ومن ثم العائلي، وتلك التي أخذت بالنمو المتواصل ذات الطابع الجمعي العام، ويحاول إيجاد سبل التوفيق بينها ضمن الوسائل المتاحة له ولغيره من جيله الطامح نسبياً. علمياً من الناحية النظرية يطرح " روبرت مرتون خمسة أنواع ممكنة من التكيفات للأفراد: الانصياع أو الابتكار أو الطقوسية أو الانسحاب أو التمرد. ففي الحالة الأولى، ينصاع الأفراد بشكل اعتيادي للقيم الحضارية، ويلتزمون لتحقيقها بالوسائل المؤسساتية المشروعة. أما الابتكار فهو الحالة التي يتوصل فيها الأفراد إلى الأهداف الحضارية المرغوب فيها بغير السبل الشرعية المؤسساتية، بسبب قلة الوسائل المشروعة للوصول إليها. أما الطقوسية، فهي الالتزام العصابي بالقواعد واللوائح، كما في الشخصية البيروقراطية، التي لا تعرف الطموح، إلا من خلال الترقي الوظيفي. والانسحاب هو الفشل في الوصول إلى الأهداف الحضارية، كما في الانهزامية وعدم وجود طموح، كما في الإدمان. أما في الحالة الأخيرة، أي التمرد، فتعتبر المؤسسات الاجتماعية القائمة كمانع أو عقبة في تحقيق الأهداف الحضارية الشرعية. وهذه حالة انتقالية نحو تحقيق توازن جديد بين التوقعات - الإنجازات... ".

ترى أين نضع قاسم ضمن هذه الممكنات من التكييف؟ عند دراسة قاسم في أطوار حياته المختلفة في الطفولة، الصبا، الشباب، المعلم، الضابط في اسفل الهرم العسكري ثم ضابط الركن، فآمر لواء ثم قائد ثورة وصاحب القرار المركزي للدولة؟.

ينتاب الكثير من الأفراد هواجس نفسية عديدة تتمثل بعضها في عملية الانصياع للقيم الاجتماعية في أطرها المؤسساتية ويكيفون سلوكياتهم الحياتية على وفق هذه القاعدة. لكنهم في الوقت نفسه، يحملون بذور التمرد في دواخلهم ويكبتونها، لعوامل عدة، أبرزها عدم قدرتهم كأفراد على تحقيق التغيير المطلوب ويحاولون أيجاد السبل الكفيلة في التنفيس عن هذا الجانب من خلال الحوار الداخلي مع النفس أو/و من خلال التثقيف الدائم للذات لتجاوز محرمات هذه الحالة أو في الأقل التبشير ضمن حلقات صغيرة. وكان هذا مع قاسم عندما كان شاباً وطالباً في الإعدادية المركزية، ومن ثم عندما كان معلماً (للغة للإنكليزية) في الشامية. إذ كان منصاعاً بشكل اعتيادي لجملة القواعد والقوانين الوظيفية، والقيم الاجتماعية.

لكنه كان من جانب آخر ونتيجة احتكاكه (بمعلمه مصطفى علي) وأصدقائه من المنخرطين في الفعل الديمقراطي اللبرالي من أبناء المحلة وما جاورها، ومن قراءاته للأفكار الجديدة التي تحملها الصحف والكتب الواردة للعراق بالعربية والإنكليزية والكردية، فقد كان متمرداً ويرى في هذه المؤسسات (الحكومية أو الاجتماعية التقليدية)، موانع ضد عملية التقدم الحضاري على المستويين الفردي والجمعي.

في هذه المرحلة بدأت لدى قاسم فكرة التمرد من جهة والإبتكار من جهة أخرى. فرأى أن عالم العسكرية هو أحد مفاتيح التغيير للواقع المعاش. وهذا ما اشار إليه الكثير ممن تطرقوا لقاسم في هذه الفترة سواءً من زملاء المهنة أو الدارسين لحياته. إذ أجمعوا أنه عندما كان برتبة ملازم أول بدأت لديه بوادر الطموح.. وأخذ يبتكر من خلال تكوين مجموعة من الأنصار والموالين من طلاب الكلية العسكرية عندما كان معلماً فيها والذين لعب الكثير منهم أدواراً مهمة في العراق الجمهوري. رافق هذه المرحلة عملية النضوج المبكر ليس كضابط اختصاصي بالعنف، بل في النظرة السياسية للأمور العامة.. وممارسته لها بصورة مباشرة أوغير مباشرة سواءً من خلال عمله العسكري أو قرابته لقائد القوة الجوية محمد علي جواد وتأثره بالفكرة الوطنية ذات المضمون الشعبي التي بشر بها الرواد الأوائل لجماعة الأهالي في النصف الأول من الثلاثينيات بمختلف توجهاتهم.

وشرع عبد الكريم قاسم، عند صعوده في السلم الوظيفي، بالتخلي رويداً رويدا عن التكييف لبلوغ المطمح الفردي ليحل محله الغائية الجمعية، وتحقيق مصالح الفئات والطبقات الاجتماعية الفقيرة والمتوسطة ضمن رؤيته الخاصة. هذه الغائية الجديدة كانت ترتكز ليس على مفهوم الإنكار الفرويدي المرتكز على مقاومة العجز عن طريق رفض الواقع من خلال إنكاره وإحلال الخيال محله. بل اقترن لدى قاسم من خلال التمرد على الواقع وإعادة صياغته ضمن عملية الانتفاض عليه. وهنا أيضاً يمكن أن نرى قاسماً يميل إلى الانصياع الظاهري للمؤسساتية، لا بل يبالغ، أحياناً، في مظهرها الشكلي دفعاً لإبعاد الشبه عن نشاطه الغائي السري في حركة الضباط الأحرار. لكنه في الوقت نفسه كان يبتكر الأساليب لأجل إنضاج الظروف الذاتية للحركة من خلال نشاطه لتقريب وجهات النظر بين الأشخاص المحوريين والكتل المتعددة. كما كان يوسع من نطاق عمل كتلته ويجمع من حوله الأعوان والمناصرين .. ويمد خيوط اتصالاته مع بعض الأحزاب السياسية القريبة منه، مثل الوطني الديمقراطي والشيوعي وبعض الشخصيات الوطنية ذات النزعة العراقية.

لم يتعرض قاسم إلى حالة التكييف الانهزامي في أغلب حياته العملية. لكن هذا لا يعني أنه لم يصادفه الفشل في بعض مفترقات حياته.. بقدر ما أن الفشل كان يُجذر ذاته، وكان يغني أفعاله ، التي كلما أوغلنا في سبر غور دوافعها نرى أن قاعها ممتلئ جدا بالأماني والنيات الإيجابية .. وهذه كانت سمتها على طوال مراحل تطور حياته، كأنها تحاول السيطرة على حيز الوجود الذي تتفاعل معه وتعمل ضمن اولوياته. كما سيطرت عليه في هذه المراحل منظومة كبح التصرفات وكان يعالجها ليس بالهروب نحو الخيال أو تبني المشاريع غير القادر على تحقيقها ، قدر ما يستنبط ما يتكيف مع الواقع المادي وصراعاته من خلال الوسائل المستنبطة من ذات أهدافها وذات قدرة على التعبير عن ذاتها.. ولا يلجأ إلى التبرير ولا يسبغ صفات أسطورية على ذاته أو ما أنجزه.

لذا كان التواضع ما يميز حياته أثناء قيادته للصراع الاجتماعي في الجمهورية الأولى. لكن هذا لا يمنع من أنه كان حالماً في بعض المفترقات وكان صاحب أمنية كبيرة مستخلصة من حلم كبير لكنه نبيل.. ومن اعتماده على العناية الغيبية، كحاضنة لأمنه وصيرورة عمله وافتقاد حس التناسب في إدارة الصراع الاجتماعي وعدم القدرة على تتبع عمق الاثار التي أحدثها التغيير الجذري الذي قاده.

تتطلب الحياة والصراع فيها وجود ظاهرة حتمية لا يستثنى منها أي مجتمع وبغض النظر عن تطوره. وتتمثل هذه الظاهرة بوجود القيادة على مختلف معانيها: العسكرية؛ الاجتماعية؛ الدينية؛ التربوية؛ والثقافية. أو تعدد أشكالها: كالقيادة الاوتقراطية؛ والاوليغاركية؛ والديمقراطية ؛ والديماغوجية؛ والإدارية.

د. عقيل الناصري متخصص في دراسة ثورة ١٤ تموز وله العديد من المؤلفات التي كتبت التاريخ الحقيقي للثورة وقائدها

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1848)
السنة السابعة
الخميس (15)
تموز 2010

عبد الكريم قاسم .. صور عن قرب

عبد اللطيف السعدون ×

أتاح لي عملي كمذيع في إذاعة بغداد ابتداء من ديسمبر (كانون الأول) ١٩٦٠ فرصة للتعرف على شخصية الزعيم عبدالكريم قاسم عن قرب ، من خلال حضوري بحكم عملي للعديد من الفعاليات التي كانت تجري تحت رعايته وبحضوره ، أو من خلال احتكاكي المباشر بمسؤولين قريبين منه ، وكذا من خلال زملائي في الإذاعة الذين كانت تسنح لهم مثل هذه الفرص وتتكون لديهم انطباعات ما عن شخصية الزعيم وطريقة تعامله مع الأمور .

أذكر أنني كلفت بعد شهور من مباشرتي العمل في الإذاعة بمرافقة رئيس المذيعين آنـذاك المرحوم قاسم نعمان السعدي لمعاونته في نقل احتفال وضع حجر الأساس لمشروع إسكاني في أحد أحياء بغداد يتم برعاية الزعيم عبدالكريم قاسم ، ولم أكن قد قمت من قبل بالتعليق الحي على فعالية كهذه ، وصادف أن تأخر زميلي عن الحضور لظرف طارئ ، وكان علي بحكم الواجب أن أتولى ذلك بنفسي ، وخشيت أن أتعرض لخطأ ما قد يودي بي في داهية ، ولكن لم يكن أمامي من خيار سوى أن أتوكل على الله وأبدأ !

وتقدمت بشيء من الخوف والتهيب لأقف إلى جنب الزعيم ، وهو يتهيأ لوضع حجر الأساس ، ويبدو انه لاحظ ذلك مرتسما على ملامح وجهي فالتفت إلي مبتسما ، وكأنه يهدئ من روعي .

في تلك اللحظة أدركت أن قاسم يمتلك شخصية كاريزمية تجعل كل العيون شاخصة نحو عينيه ، فيما كانت عيناه تتقدان حدة وكأنه يخاطب كل امرؤ من الحاضرين وحده !

كان التقليد المتبع في احتفال كهذا أن توضع نسخ من الصحف العراقية الصادرة في ذلك اليوم ، وقطع من العملة العراقية بمختلف فئاتها في صندوق صغير يغلق ويودع عند الحجر الأساس ، وقد تقدم أحد المرافقين وهو يحمل مجموعة الصحف وقد استل منها جريدة " اتحاد الشعب " لسان الحزب الشيوعي العراقي لتكون الصحيفة الأولى إلا أن قاسم تجاهل ذلك ، وامتدت يده ليلتقط جريدة " صوت الأحرار " وهي جريدة يسارية مستقلة يرأس تحريرها الصحفي اليساري المعروف لطفي بكر صدقي ثم ليضعها داخل الصندوق قائلا " نضع أولا صحيفة الأحرار الذين آمنوا بالشعب وصنعوا ثورته الخالدة " ، واختار بعدها صحيفة " الثورة " لصاحبها يونس الطائي ، وهو صديق قديم لعبدا لكريم قاسم ، وكان واسطة التفاوض بينه وبين انقلابيي ٨ فبراير ١٩٦٣ قبل استسلامه ، وهو موضوع آخر ليس مجال بحثه الآن ، وعلق قاسم وهو يضع الجريدة في الصندوق بالقول أن " هذه هي صحيفة ثورة ١٤ تموز الخالدة " ، وبعد ذلك وضع الصحف الأخرى من دونما تعليق .

كان تصرف قاسم هذا ينم عن ذكاء وتقدير للموقف إذ أنه على ما يبدو أراد أن يلغي انطباعا كان سائدا في تلك الفترة لدى أوساط كثيرة من انه " شيوعي " أو أنه " قريب من الشيوعيين " ، كما كان يريد أن يبعث برسالة إلى الشيوعيين أنفسهم مفادها أنه زعيم كل العراقيين ، وليس منحازا لفئة سياسية مهما كان حجمها وتأثيرها !

وفي مناسبة مماثلة في افتتاح مشروع إسكاني آخر كنت أقف إلى جانب الزعيم عبدالكريم قاسم حاملا جهاز التسجيل القديم الذي عادة ما يستعمله الجيش (جهاز النكرة) ، وذلك لتسجيل خطابه ، وبينا كان الزعيم مسترسلا في خطابه اكتشفت أن الجهاز قد توقف عن التسجيل لخلل فني لم أكن قادرا على إصلاحه ، وعندما انتهى الزعيم من إلقاء خطابه فكرت أن اطلع أحد المسؤولين بما حدث لكي تكون المراجع العليا على علم وربما تجد لمأزقي حلا ينقذني من عقاب متوقع من إدارة الإذاعة قد ينالني لاحقا ، وكان أن تقدمت من اللواء أحمد صالح العبدي الحاكم العسكري العام آنذاك ، وبعدما شرحت له الموضوع فوجئت بإجابته بأنه لا يمكنه إعطاء رأي في موضوع كهذا وان علي أن أتصرف بما أراه مناسبا من دون أن يعرف أحد أنه قد عرف بالحادثة ، وقد قدرت في حينه أنه يخشى غضب الزعيم عليه ! وقد خدمني الحظ عندما عدت إلى الإذاعة وأذيع القسم المسجل من الخطاب ، ولم ينتبه أحد أن ثمة بقية للخطاب لم يتم تسجيلها ، ومر المأزق على خير .

وفي مناسبة ثالثة حضرها قاسم وكنت أحد شهودها تقدمت امرأة من بعيد تبغي الوصول إليه ، وكان يحيط به رجال الحماية الذين حاولوا منعها من التقدم لكنها استطاعت أن تصل إلى بعد بضع خطوات منه ، وهي تصرخ لتشكو من ظلم ألحقه بها مسؤول إداري ، وكان أن نهرها المرافق الأقدم العقيد وصفي طاهر وأمسك بها محاولا إعادتها إلى الخلف فأطلقت صرخة لفتت انتباه الزعيم الذي بدا عليه الغضب ، ولمحت الشرر يتطاير من عينيه وهو يأمر طاهر بان يدعها تتقدم قائلا " إذا لم يستطع المواطنون أن يشكوا إلى الزعيم مما يتعرضون له فلمن يشكون إذن ؟ " وعندما وصلت كانت تلهث فهدأ قاسم من روعها واستمع إلى شكواها وأمر بإنصافها .

ولاحظت أنها ليست المرة الأولى التي يشير فيها قاسم إلى كونه هو " زعيم البلاد " فقد كرر أكثر من مرة في خطبه عبارة أن " الكل وراء الزعيم " ، وكان واضحا أنه يرتاح لهذا اللقب أكثر من أي لقب آخر ، ويعرف الجميع أنه عندما رقي من رتبة زعيم ركن إلى رتبة فريق ركن باعتباره القائد العام للقوات المسلحة قبل الرتبة ظل اسمه مقرونا بلقب (الزعيم) ، حتى في المخاطبات والمناسبات الرسمية . ولكنه فضل أن يبقى على لقب " الزعيم " الذي يفضله دون سواه ، وقد أضاف إليه أنصاره فيما بعد صفة " الأوحد " بعد إقصاء عبد السلام عارف الذي كان ينافسه على زعامة البلاد .

وقد حدثني في حينه الصحفي الراحل عبد الرزاق البارح الذي كان يكتب افتتاحيات جريدة (الثورة) لصاحبها المرحوم يونس الطائي من دون أن يوقعها باسمه ، والذي أطلق الدعوة في حينها إلى تأليف حزب سياسي باسم (حزب الزعيم) ، أنه كثيرا ما كان يستدعيه قاسم وحده أو مع يونس الطائي ويقضي معهما الأمسية في الحديث وطرح وجهات نظره في مختلف القضايا العامة ، وكان البارح يستعين بملاحظات الزعيم في كتابة افتتاحيات الثورة أو التعليقات السياسية لإذاعة بغداد والتي كان البارح في تلك الفترة من ابرز كتابها .

نقل لي البارح أن أبـرز ثلاثة كتب كان يرجع إليها قاسم كانت القرآن الكريم و" نهج البلاغة " للإمام علي بن أبي طالب و" هكذا تكلم زرادشت " لنيتشه ، وانه يحفظ عن ظهر قلب مقاطع من الكتابين الأخيرين إضافة إلى آيات كريمة ، كما كان يكرر في مجالسه الخاصة (بحسب رواية البارح) أنـه إذا صح أن هناك " سوبرمان " يمكن أن يظهر يوما ما فسوف يظهر في العراق ، وليس في غيره لأن العراق سليل حضارات ، ووريث تاريخ عريق ! "

كان " عراقيا " إذن حتى النخاع ، ولم يعرف أنه تبنى موقفا طائفيا أو عرقيا معينا ، وكان واضحا من خطبه إيمانه المطلق بالعراق وأهله ، وكان غالبا ما يطلق على الجمهورية العراقية صفة " الخلود " ، مشيرا في أكثر من مرة إلى أنها " أمنع من عقاب الجو " !

وقد قدر لي أن أشهد لحظة دخوله مبنى الإذاعـة عند استسلامه يـوم ٩ شباط (فبراير) ١٩٦٣ حيث بدا هادئا ومتماسكا فيما كانـت عينـاه تطوفان في عيون الجنود الذين كانوا وقفوا في صفين على امتداد الممر المؤدي من بوابة الإذاعة إلى المبنى الداخلي حيث أدخل إلى (صالة الموسيقى) وأجريت محاكمة صورية له هناك بحضور عبد السلام عارف وأعضاء (مجلس قيادة الثورة) ، وتم تنفيذ حكم الاعدام فيه رميا بالرصاص لتنتهي بذلك صفحة من صفحات التاريخ العراقي المخضب بالدم ولتبدأ صفحة جديدة ربما كانت أكثر دموية من سابقتها .

وإذا كان لنا أن نضع تقييما موضوعيا لشخصية عبد الكريم قاسم ولأدائـه السياسي وطريقة إدارتـه للدولة يمكننا أن نقول انـه مثل في تجربته نموذجا للقادة " الشعبويين " الذين خرجوا من رحم " العسكريتاريا " العربية ، إن صح التعبير ، في فترة الخمسينيات وكانت تطغى على اهتماماتهم فكرة الالتصاق بالطبقات الشعبية والانتصار لها من دون الاعتماد على خط أيديولوجي واضح ، يخالط ذلك الثقة المبالغ بها في النفس ، وبتوهم القدرة على حل المشكلات التي تعانيها تلك الطبقات ، وقد يصل الأمر بهذا النمط من القادة لحد التوهم بأنهم وحدهم القادرون على حل تلك المشكلات ، وأنهم " خالدون " وأن لا أحد يستطيع أن يزيحهم أو حتى أن ينوب عنهم !

وقد يزيد من حدة هذه الظاهرة ، كما في نموذج عبد الكريم قاسم ، عجز ما كنا نطلق عليها آنذاك تسمية (الحركات الثورية)، عجزها عن التقاط المبادرة والإمساك بالبوصلة كما هو مطلوب وتحديد المسار لتحقيق النقلة التاريخية في البلد ، أكثر من ذلك أن تلك الحركات قد انفرط عقد (جبهتها) ، ودخلت في (حروب) فيما بين أطرافها ، وخسرت البلاد جراء ذلك الكثير من ثرواتها ورجالها .

× مذيع واعلامي عراقي
مجلة المواسم عدد خاص عن ثورة تموز ١٩٩٧

وقفة تجمع بين عبدالكريم قاسم وسفير العربية المتحدة السيد فهمي وقاسم الجنابي مرافق وزير الدفاع عبدالكريم قاسم.

العراقيون
من زمن التوهج
العدد (1848)
السنة السابعة
الخميس (15)
تموز 2010

(المدى) تنفرد بنشره

تقرير العقيد طه البامرني آمر الحرس الملكي عن أحداث ١٤ تموز

على الرغم من الكتب والمقالات الكثيرة التي تناولت ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ واحداثها السريعة ورجالها فإن الكثير من الحلقات المهمة في تطور احداثها ، لم يزل الغموض يلفها والتساؤلات حولها مستمرة .

ولم تكن احداث ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ وحدها جديرة بفك طلاسمها وكشف غوامضها ومعرفة حقيقة ماجرى فيها ، فإن تاريخ العراق الحديث مليء بالألغاز ، وتكتنف حوادثه الجسيمة الكثير من النقاط الغامضة .

وإذا كانت الدراسات الاكاديمية وكتب المذكرات قد كشفت العديد من اسرار العراق الحديث ، فإن مانقرأه اليوم من مقالات وكتب ، اضافت الى الغموض غموضاً ، وخاضت البحث بأساليب بعيدة عن الحياد والانصاف والصدق .

ولعل السبب في ذلك – كما نعتقد – هو غياب الوثائق الكاملة وفقدانها او تفرقها ، والاسباب معروفة للجميع (!)

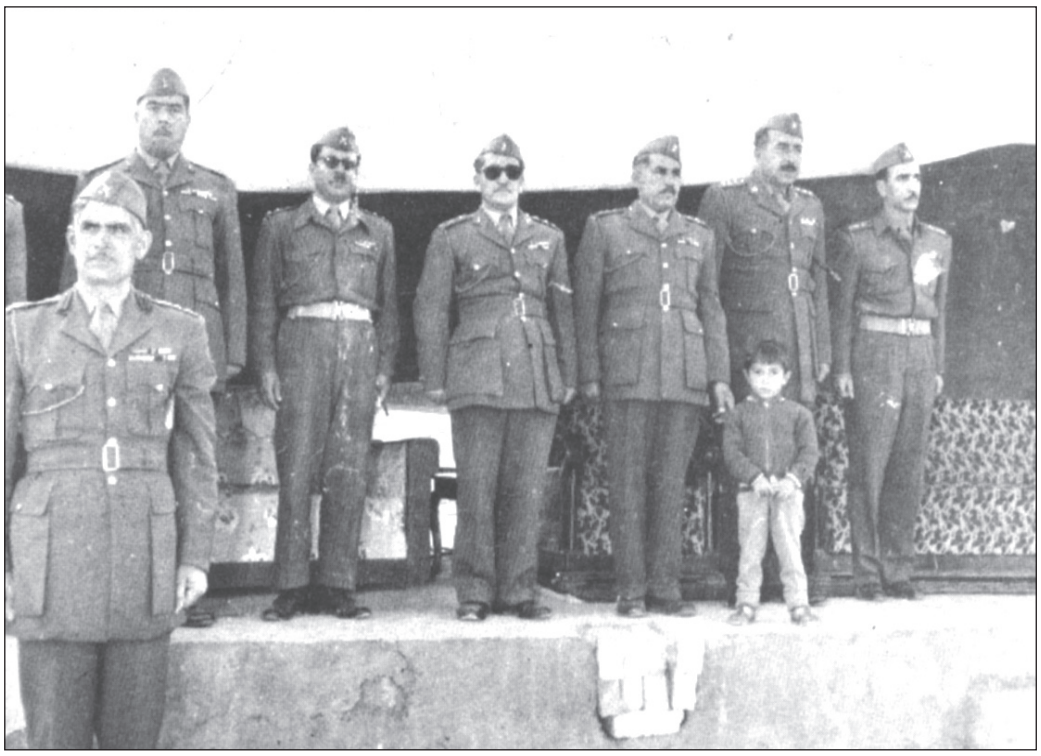

قاسم مع عدد من قادة الثورة

رفعت عبد الرزاق محمد

كما ان غياب الاشخاص الذين كانوا في مركز الاحداث وما تحمله صدورهم من ذكريات ، اضاف الى مشكلة البحث في تاريخ العراق الحديث ، عوامل اخرى من الاحباط والنقص والافتراء ، فضلاً عن الحوار الفكري لدى العديد من الكتاب .

نظرنا الى امر الحاضرين فرابنا

فكيف بأمر الغابرين نصدق

ومن القضايا الغامضة التي تثير الريبة ، موقف الحرس الملكي وآمره من احداث صبيحة يوم الثورة في تنفيذ ما اوكل اليه من مهمة الدفاع عن الاسرة المالكة وقصورهم ، وقد تضاربت الروايات في ذلك ويبدو ان الامر أثير من البداية فطلبت قيادة الثورة من آمر الحرس الملكي يوم ذاك العقيد طه مصطفى البامرني ان يكتب تقريراً بذلك ، والبامرني لم يكن منتمياً لحركة الضباط الاحرار ولعله لم يسمع بتلك الحركة ايضاً ، كما يستشف من تقريره الذي نعرضه هنا .

ومن المناسب ذكره هنا إن البامرني حظي برعاية الثورة ، بل انه كُلف بأمرية (المقاومة الشعبية) وهي وحدات شبه عسكرية من المتطوعين قيل إن احد الاحزاب السياسية الفاعلة آنذاك ، (١٩٥٩) كانت المبادرة لتشكيلها ، ولم يكن طه البامرني منتمياً لهذا الحزب (!) .

لم يُنشر التقرير كاملاً قبل هذا وقد اعتمده الدكتور ليث الزبيدي في رسالته المطبوعة عن ثورة ١٤ تموز كما اعتمده الاستاذ عبد الجبار العمر في كتابه (الكبار الثلاثة) .

ونشر بعضه الاستاذ خليل ابراهيم حسين في موسوعته عن الثورة واشار اليه العديدون دون الاطلاع عليه .

وكان الاستاذ عبد الجبار العمر في سبيل نشر التقرير في مجلة (آفاق عربية) في الثمانينيات عندما اقامت المجلة المذكورة ندوة تاريخية لرجال الثورة من العسكريين وغيرهم ، غير ان الامر لم يتحقق ولفه النسيان .

وقد نقلت هذا التقرير بخطي عن نسخة العمر ، كما اطلعت على نسخة الاستاذ كامل الجادرجي المحفوظة لدى الاستاذ نصير الجادرجي ، ولم اجدها تختلف عن نسخة العمر المستنسخة عن نسخة البامرني التي آلت – كما اخبرت – الى هيئة كتابة التاريخ العسكري . واليك نص التقرير :

موقف العقيد طه مصطفى البامرني آمر فوج الحرس الملكي

ووكيل آمر اللواء سابقاً من ثورة الجيش العراقي المباركة

ضد عهد الطغيان والملكية الفاسدة في صباح يوم ١٤/٧/١٩٥٨

× كنت قد ارسلت عائلتي للاصطياف في قرية بامرني منذ شهر ونصف كالعادة في كل سنة ولهذا كنت اسكن في الفوج ، ثكنة الحارثية ، وكان في الفوج في ذلك اليوم رئيس الخفر الرئيس سالم رشيد وضابط الخفر الملازم ثاني محمد امين وضابط خفر في ثكنة سرية الرحاب الملازم كاظم جبر .

× كان من المقرر اخراج حرس الشرف صباح هذا اليوم لتوديع الملك فيصل بمناسبة سفره الى تركيا فتحركت سيارة (باور) من الفوج حوالي الساعة (٠٤٠٠) جلب ضباط حرس الشرف مبكراً ولهذه المناسبة أيقظت من النوم بالساعة (٠٥٠٠) للإشراف على حرس الشرف وارساله الى المطار .

× بينما كنت منشغلا بحلاقة وجهي حوالي الساعة (٠٥١٥) اتاني رئيس الخفر مسرعاً واعلمني بأن الملازم الثاني (فالح زكي حنظل) المنسوب الى وحدتنا اخبره تلفونياً بأنه عندما كان يذهب الى مدرسة المشاة للإلتحاق بدورة تدريب المشاة وجد ان الجسر ودوائر البريد محتلة من قبل لواء العشرين وقد تم انقلاب الحكومة فاخبرته بأنه متوهم واليوم موعد حركة اللواء الى الاردن ولابد ان للقوات هذه مواقع سيطرة على الجسر فاخبرني رئيس الخفر " كلا لأنهم منعوا الملازم فالح زكي من اجتياز الجسر " وحينذاك طلبت منه ان يتصل تلفونياً مع ضابط خفر الانضباط العسكري يستوضح منه هذا الموقف .

× عندما كان رئيس الخفر يحاول الاتصال تلفونياً مع ضابط خفر الانضباط العسكري كان آمر حرس الشرف (الرئيس عبد الرحمن صالح) قد وصل الى ثكنة سريته في قصر الرحاب واتصل تلفونياً مع رئيس الخفر واكد له قول الملازم الثاني فالح زكي حول حادثة الانقلاب كما طلب من رئيس الخفر للإستفسار مني هل يتهيأون لحرس الشرف او اي واجب آخر ؟ وكان قد وصل الرئيس عبد الرحمن صالح والملازم الاول محمد رضا من نفس الفوج لأنه مشترك في حرس الشرف وكذلك حضر معلم الجوق الموسيقي الرئيس موسى لنفس الغاية .

× واجهني رئيس الخفر ثانية واعلمني بمكالمة الرئيس عبد الرحمن فتأكد لدي وجود ثورة ، ولكن اي ثورة ؟ هل هي لأجل الكراسي والمناصب كما كان ينوي الحجازي ام انها ثورة الجيش والامة من اجل الحرية ؟ . فقررت مايلي :

أ–إذا كان القائمون بالثورة من امثال الحجازي فأنني اقاوم بكل ماعندي من قوة .

ب–اذا كانت الثورة ثورة الحق ضد الباطل والعبودية فانني أنضم اليهم لما في نفسي من آلام مزمنة بنتيجة اعمال الحكم الزائل ولما كنت اشاهده من الظلم والمنكرات والخيانات في كل جزء من انحاء المملكة وشعوري هذا كشعور الاكثرية الساحقة من ابناء الشعب وكنت اتحدث الى بعض المخلصين والاخوان دوماً عن هذا الوضع النفسي .

× نتيجة تقديري للموقف في (أ) و (ب) اعلاه وكعمل حتمي لكل عسكري اخبرت رئيس الخفر بان يأمر البوقي بأعطاء اشارة الانذار وتوزيع جميع الاسلحة وكسر مستودع ضابط الاعاشة للعتاد وتوزيع العتاد على السرايا فوراً كما طلبت منه ان يطلب حضور كل من مساعد الفوج (الرئيس هاشم كمال) وضابط الاعاشة (الرئيس كامل) وذلك بواسطة التلفون ولوجود دورهما قريبة من بلدة الحارثية مقابل قصر الرحاب .

× اسرعت في الحلاقة وارتديت الملابس العسكرية واخذت المسدس والعتاد واشرفت على توزيع العتاد للسرايا وكان المساعد وضابط الاعاشة قد حضرا حينذاك .

× حوالي الساعة (٠٦٠٠) سمعت صوت الرمي من استقامة قصر الرحاب فأخبرني رئيس الخفر بأن الامير عبد الإله خابره تلفونيا ويطلب حضوري في القصر لديه فوراً ، ولكنني لا اتمكن من ترك الفوج مالم اتأكد من اكمال العتاد ، وثم بلغت المساعد بتوزيع سرايا الفوج على محيط الثكنة لحماية محلية فقط وانني ذاهب الى مواجهة الامير عبد الإله ولايجوز حركة الفوج الى اي محل دون علمي وبأمر مني .

× تحركت احدى مدرعات (ملر) الاربعة الموجودة بأمرة الفوج الى قصر الرحاب ووقفت المدرعة امام باب القصر فدخلت مسرعاً واخذني احد انضباطية القصر الى غرفة خاصة وبعد فترة وجيزة حضر الامير عبد الإله وهو يرتدي بيجامه رمادية اللون فسألني ماهذا الموقف فأخبرته لا اعرف شيء سوى ما اخبرني الرئيس عبد الرحمن بوجود انقلاب من قبل ل ٢٠ .

× فقال الامير فلم الاذاعة تذيع اسماء الوزارة ، وسمعت من راديو في احدى الغرف في الطابق العلوي تذكر اسماء اعضاء الوزارة ولكنني لم افهم من هم الوزراء وامرني بما يلي :–

حاول ان تحصل على اكبر وقت ممكن حتى اتصل مع قواتنا الموالية واذا احرج الموقف فساخبرك بأجراءات اخرى وهنا حضر الملك فيصل وهو يرتدي سروالا ملكيا وثوبا ابيض ولم يكلمني بشيء سوى الابتسامة والانحناء اشارة للسلام فجاوبت الامير عبد الإله " تأمر " وخرجت من عندهما بعد ان

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1848)
السنة السابعة
الخميس (15)
تموز 2010

اديت التحية العسكرية .

× بالنظر لمرور تجارب كثيرة في الحركات الفعلية من حركة مايس سنة ١٩٤١ كنت مساعد الفوج الاول لواء السادس الذي ابلى بلاءً حسناً مع قوات المستعمرين في معركة الفلوجة وحركات فلسطين سنة ١٩٤٨ فانني اعلم ان الشخص يفقد شعوره في بعض الفقرات لذا يجب عدم التسرع في الامور وتقدير الموقف في كل أمر وكل واجب مهما كان بسيطاً لذا قررت ان اهدأ في محل امين افكر قليلاً في الامر الذي تلقيته من الامير عبد الإله فالتجأت الى غرفة حرس الباب النظامي لمقر الرحاب .

× فكرت في امر عبد الإله على اساس اتصاله بقواتنا الموالية وتنصت الى بغداد معسكر الوشاش فلم اسمع صوت الرمي كمقاومة من الشرطة او من وحدات معسكر الوشاش ولا الرشيد ثم فكرت ان القوات الموالية هي اللواء الاول ومعسكر الحبانية ثم فكرت في الشطر الثاني من امره وهو (اذا احرج الموقف اخبرك باجراءات اخرى) اي انه ينوي الهروب الى الحبانية فتتكرر المأساة كسنة ١٩٤١ ثانيةً واكون انا المسبب والمجرم لقتل ارواح آلاف البشر الابرياء مقابل شخصين كما واتمكن انا من النجاة معهما لكن ماجريمة اطفالي وعائلتي يوصَمون بوصمة الخزي والعار لعمل والدهم والخيانة لأمته ووطنه ودينه وعلى ضوء الملاحظات هذه قررت مايلي :

أ- الاتصال بقوات الثورة لمعرفة قواد الثورة فيما اذا كانوا من امثال على الحجازي لكي انفذ خطتي الاولى بالمقاومة وضربهم بشدة .

ب- اذا كانت الثورة من الجيش ومؤيّدة من الشعب وتحت قيادة رجال مخلصين فيجب ان انظم اليهم واسعى لانهاء الموقف قبل ان يتمكن المجرمون من الهزيمة .

× كيف اتصل مع الثوار والرمي مستمر ً ، فناديت الحضيرة المجاورة لي ومن وحدتي لتقطع فاخبرني العريف (مرزوك دهوي) سيدي نحن قطعنا النار ولم نرم فشاهدت عريفا من لواء العشرين المدعو(نعمة محسن القريشي) وناديته ياعريف لماذا ترمون وتريدون قتلي وقتل جنودي ونحن من الجيش العراقي معكم واطلب سرعة اتصال احد ضباطكم معي واحضر انا في مقركم للتفاهم فأعلمني العريف سيدي هناك عندكم العريف (مرزوك دهوي) ابن عمي ويريد ان يقتلنا ، فناديت العريف مرزوك وخرجت معه الى الشارع امام قصر الرحاب كما ان العريف المقابل للشارع اوقف النار وحضر عندي وطلبت منه ان يدلني بسرعة على احد الضباط فقال سيدي لا اعلم بهم وطلب مني ان ازودهم بالماء فطلبت من جنودي ان يجلبوه لهم الماء من قصر الرحاب وجلبوا لهم فعلاً .

× بينما كنت واقفاً مع العريف (نعمة محسن القريشي) المنسوب الى ف ٣ ل ٢٠ واطلب منه ان يدلني على احد ضباط الثورة حضر لدي الرئيس (عبد الرحمن محمد صالح) آمر سرية الرحاب وطلبت منه ان يأخذ سيارتي ويذهب لملاقاة احد ضباط الثورة لكي اتصل معهم وفي نفس الوقت ارسلت الملازم الثاني كاظم جبر ضابط الخفر لقصر الرحاب لكي يذهب الى الحضائر الموجودة خلف القصر ويمنعهم من الرمي والاتصال بأحد الضباط ويخبرني لأحضر في مقرهم او يحضر احدهم عندي للتفاهم.

× توقف الرمي على القصر على اثر هذه الاجراءات ثم تكرر الرمي ثم اوقفناه ثانيةً ثم تكرر ثالثةً ولما لم يحضر امر السرية ولا الملازم (كاظم جبر) قررت ان ادخل بنفسي بين القوات الثائرة وابحث عن الضباط واول من وجدت الرئيس (عبد الستار سبع) المنسوب الى مدرسة المشاة ولما ناديته وطلبت منه التفاهم على الموقف طلب مني تفريغ المسدس الذي كنت احمله ففرغت المسدس واعطيته العتاد ثم اخبرته لعل تريد المسدس كذلك قال كلا ياسيدي فسألته عن موقف الثورة ومن هم قواد الثورة وفي تلك الاثناء وجدت ضباطاً آخرين حولنا احدهم من القوة الجوية والرئيس عبد الله الحديثي من مدرسة المشاة وضباط احتياط ووجدت العزم والايمان القويين في وجوه الضباط والمراتب ومن وحدات مختلفة مشتركين مع ل ٢٠ فناداني ضميري ان أنضم اليهم فأخبرتهم اخواني من الآن انا معكم وقد وقفت النار من سريتين والآن اذا يتقدم معي ضابطان مع اربعة ضباط مسلحين بغدارات ندخل القصر ونخرج الملك وولي العهد ونأخذهما الى مقر قيادة الثوار فلم يوافقوا بل طلبوني ان اذهب بنفسي وادعوهما الى الخارج إلا انني فكرت وقلت لهم لوحدي سوف لايطيعان اوامري ومن المؤكد سيقتلاني ويبعثون بغيري لقيادة الفوج واللواء .

× واخيراً قرر جميع الضباط واخبروني اذا كنت حقاً مع الثورة فأخرج السريتين من مواقعهما ويتركون اسلحتهم على الشارع ويجلسون في الحديقة امام القصر فأتفقت معهم فوراً وناديت آمر السرية الرئيس عبد الرحمن وامراء الفصيل والسريتين بأعلى صوتي للتجمع امامي مع العلم اني كنت اخشى ان يعصوا اوامري وحينذاك ابقى وحدي مع جماعة الثورة إلا ان الباري تعالى اراد انتصار الحق على الباطل فتجمعت السريتان بأسرع مايمكن وتركت اسلحة السريتين على الشارع وجمعتهم جالسين في الحديقة اما حضائر لواء العشرين فدخلنا مع الضباط ومراتب الثورة الى حديقة القصر واخذ الرمي بشدة من كل جانب على الشبابيك والابواب من مسافة لاتتعدى ٢٠ – ٣٠ ياردا وكنا نسمع صوت الرمي من داخل القصر ايضاً ولا اعلم من هو الذي كان يقاوم .

× تذكرت ان الفوج والمدرعات بأمرة المساعد في الحارثية وباسلحتهم وعتادهم فخشيت من حركة قوة اخرى للثورة الى الفوج وتحصل الكارثة هناك فأخبرت الرئيس ستار سبع وبعض الضباط الذين كانوا معهم بأنني سأخابر المساعد لأخذ جميع الاسلحة والاعتدة من الفوج وادخالها في المشاجب خشية وقوع كارثة هناك فأيدوني وخرجوا جميعاً فخابرت المساعد من تلفون الباب النظامي لقصر الرحاب واخبرته بما يلي :

رئيس هاشم هنا في الرحاب انتهى كل شيء ولاتوجد لنا اي مقاومة وخشية وقوع مالاتحمد عقباه اسرع بأدخال كافة الاسلحة والاعتدة للفوج في داخل المشاجب ، اجابني المساعد بكل حزم " تأمر سيدي " وانني كنت واثقاً من نفسيته وافكار المساعد الذي كان مواطناً مخلصاً وهو الضابط الوحيد في الحرس الملكي الذي تمكنت ان الوح له في بعض الايام عن هذه القضايا الوطنية واستهتار الاستعمار في بلادنا.

× طلبت من الضابط قطع النار لندخل انا مع ضابطين وبعض المراتب المسلحين بالغدارات لأخراجهما لأن الرمي بدون فائدة وربما يؤدي الى الارتباك الكثير ووقوع خسائر من نفس القوة كما كنت اخشى من أن يرجع بعض مراتب وحدتي الى اسلحتهم للمقاومة فطلبوا مني ان ادخل بوحدي واطلبهما الى خارج القصر وفعلت ذلك إلا ان عدم معرفتي بمحل التجائهم وكثرة الدخان داخل القصر كما وتنبهت بأن من المؤكد انهم سيقتلوني في اول ما اواجههم لذا قررت العودة من القصر مسرعاً الى تلفون الباب النظامي وطلبت حضور الضابط لسماع المكالمة التلفونية .

× حضر (الشريف حسين) على التلفون فطلبت منه احضار عبد الإله فأعلمني بأنه لايتمكن من الحضور وطلب مني ان اخبره بما اريد ليبلغه فأخبرته بأن الفوج لايتمكن من المقاومة وقد سلم الفوج للثائرين ويطلب الضباط خروجه مع الملك للنظر في مصيرهما او سينسف القصر فترك الشريف حسين وتركت انا ايضاً ووجدت الرئيس (ثابت يونس) المنسوب الى فوج الحرس والمستخدم مرافقاً للملك منذ ستة اشهر تقريباً يطلب من الضباط ان يدخلوا معه للتفاوض مع الملك والامير وكان يريد الدخول من باب المطبخ فعلمت ان المرافق يعلم بملجئهم ورجعت الى الباب النظامي لكي اسيطر على السرية لكي لايرجعوا الى اسلحتهم وخوفاً من تعدي مراتب لـ ٢٠ عليهم وفي هذه الاثناء اخبرني احد الضباط ولا اتذكر اسمه بأن المرافق ثابت كان قد اخفى حضيرة من جنودنا في مدخل المطبخ واعطى لهم امر الرمي على ضابط برتبة رئيس من ل ٢٠ وجرح على اثره ، ثم جرح المرافق الرئيس ثابت (العين بالعين) .

× في هذه الاونة لاحظت خروج جماعة من النساء للأمام وخلفهن يسير كل من الملك فيصل والامير عبد الإله الى وسط الساحة امام القصر وهناك فتح عليهم نار الرشاش وقتلوا جميعاً .

× طلبت من الضباط الموجودين من وحدات مختلفة وهم :

المقدم مصطفى العمري من المدرعات

الرئيس عبد الستار سبع

من مدرسة المشاة

الرئيس عبدالله الحديثي

من مدرسة المشاة

ورئيس من القوة الجوية

لا أعرف اسمه

وضباط اخرين لا اعرف اسماءهم من وحدات لواء العشرين ، ان يسرعوا بمرافقتي للذهاب الى ثكنة الفوج وقصر الزهور قبل ان تدخل قطعات اخرى ولعدم وجودي هناك اخشى ان يتصادم الطرفان وبعد موافقة البعض وتردد اخرين طلبوا مرافقتهم الدبابات والمدرعات ، واخيراً بالحاحي الزائد كان آمر الدبابة الرئيس الاول (جواد لاوند) تحركنا وانا امامهم الى قصر الزهور اولاً وهناك اخذت الاسلحة والاعتدة الى المشاجب والمراتب جالسون في القاعات .

× في حوالي الساعة (٠٩٣٠) عندما رجعت الى مقر الفوج وبعد ان سلمت عليه اخبرني المساعد بصدور بيان من دار الاذاعة بنقلي الى شعبة المبايعات ونقل العقيد نوري الراوي محلي .

× طلبت من العقيد نوري الراوي ان يسمح لي في نفس اليوم الالتحاق بمنصبي الجديد إلا انه رغب ببقائي الى اليوم التال وتركت سيطرة الفوج الى الموما اليه في ثكنة الفوج الى صباح يوم ١٩٥٨/٧/١٥ حيث اجريت دور التسليم والتحقت بمنصبي الجديد .

الخاتمة

اني قمت بهذا الواجب الوطني المقدس دون ان يكون لي علم او سابق اتصال برجال الثورة وانا وضميري هو الذي دعاني لأقوم بواجب الخير دون الشر ولا شك إن عملي هذا كان السبب في حفظ سفك الدماء العزيزة من ابناء الوطن الامر الذي كان من المحتمل ان يقوم به اي ضابط آخر لو كان في منصبي وفي هذا الموقف الحرج ولله الحمد لم يحدث اي خسارة في الفوج عدا جندي واحد مجروح وذلك قبل ان التحق بقصر الرحاب .

وبهذه المناسبة اقدم اخلص التهاني والتبريكات الى قائدي الثورة الزعيم الركن عبد الكريم قاسم والعقيد الركن عبد السلام عارف ونبارك بثورة الجيش والشعب المقدس الذي انهى عهد الاستبداد والفساد .

واتمنى من الباري تعالى ان يوفقنا جميعاً بخدمة الامة والوطن والامة العربية والمسلمين اجمع والله سميع مجيب .

توقيع
العقيد
طه مصطفى البامرني

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1848)
السنة السابعة
الخميس (15)
تموز 2010

عبد الكريم قاسم في الذاكرة

شاكر هاني غضب

لم تكن حكايات هذا الزعيم الوطني أكثر منها جدلاً في حياة زعماء آخرين ساقهم الزمن في تأريخ الشعب العراقي. فهو وطنيٌّ لا غبار عليه، أنهى حقبة عاش العراق فيها سوءاً لا يمكن تصوره، بين الاستعمار والإقطاع والتخلف ومصائب كثيرة. مرَّ ما يقارب النصف قرن على استشهاده إلا أن الغصة التي أمسكت بجميع معاصريه الشرفاء مازالت يحملها الأحياء منهم. وأسجل هنا بعض الحكايات الخاصة بتلك الفترة، وما تداول شعبياً منها. ويكفيني فخراً أني كنت المخبر الأول لحدوث الثورة المباركة لقريتي، وكنت في عمري الصغير أنتظر نتائج البكالوريا للصف السادس الابتدائي، حيث أن مدير مدرستنا أعطانا الموعد المذكور بعد آخر مراجعة لنا. ذهبت إلى المدرسة، وكان المكان يلفه الصمت.

طرقت الباب الكبير بكلتيّ يدي. جاء الفراش الطيب قائلا: «ماذا تريد يا بني؟» قلت: «أسأل عن نتائج البكلوريا.» ابتسم الرجل ابتسامة فيها حيرة وقلق وقال: «اذهب يا ولدي لأهلك فإن الدنيا انقلبت، حيث أن الملك قتل وهرب نوري السعيد.» قلت: «ومن حل محله؟» قال: «يقولون أنه الزعيم عبد الكريم قاسم.» ومن دون تعليق أحسست أنّي أطير من الفرح. لا لمجيء الزعيم، ولكن لخلاصنا من نوري السعيد الذي كان عمود الطغيان في ذلك الوقت. وعدتُ راكضا إلى قريتيَ (التي تبعد ٣ كم عن المدرسة) وأنا أصيح دون أن يسمعني أحد: لقد تخلصنا من نوري السعيد.

وأنا أكرر هذه الصيحة طول الطريق. ونوري السعيد هذا هو رئيس الوزراء قبل الثورة، من العجب أن أسمع عنه أنه شخصية وطنية وأنه عرّاب الديمقراطية في العراق، وأنه.. وأنه.. وفي رأيي أن ذلك يعود إلى رأي الجماعة الذين عاصروا العهد البعثيّ المُباد بمآسيه الخالدة وربما الذين ينحدرون من أصلٍ إقطاعيٍّ أو رأسماليٍّ أو من وجهاء العهد الملكي الفاسد. فإذا كان نوري السعيد وطنياً مقارنة بصدام حسين فذلك ربما يكون فيه بعض الحق. أما تقييمه الحقيقيّ فيجب أن ينبع من التجربة والمقارنة. وأنا أطلب رأي القراء والمعدمين في هذه الشخصية، وما أكثرهم في ذلك الزمن. وهناك بعض الحقائق:

١. لقد كان العهد الملكي مأساوياً بالنسبة لحقوق المواطنة فـ(٩٠٪) ليس لهم أن يرفعوا رؤوسهم أمام (١٠٪) من الشعب المختار في كل شيء.

٢. كان قانون العشائر سيئ الصيت -الذي ألغته الثورة- هو المعمول به في الدولة وفيه التحكم المطلق لرئيس العشيرة أو الوجيه في رقاب عباد الله.

٣. على الفقير أن يخدم ويكد ويتعب ليضع ذلك في جيوب الـ(١٠٪) المذكورين.

٤. كان نظام السخرة معمولاً به، فابن الشعب عليه أن ينفذ رغبات الوجهاء دون سؤالٍ أو مناقشةٍ وإلا تعرض للضرب والإهانة.

٥. لقد كان الاستعمار البريطاني هو الحاكم الفعلي في العراق، وهو الموجِّه لسياسة العراق وهو الذي كبَّل العراق بالمعاهدات والأحلاف الجائرة. ولولا الثورة التي أخرجته منها لكان ما كان.

٦. لو كان نوري السعيد وطنياً لما قامت الثورة، ولما قتله أبناء الشعب، ولما قامت الدنيا ولم تقعد ضده.

هذه هي شهادتي الشخصية، وأنا ممن عاصروا تلك الحقبة المظلمة، ومع أنّي كنت فتيّاً، فقد رأيت من خباياها الكثير. وهي وان كانت رأياً شخصياً، إلا أنها لا تختلف عن رأي الجميع ممن عاصر ذلك العهد.

وبدأت الأحداث تجري وتتلاحق والحكايات تسري بين خلق الله، وكيف أن نوري السعيد لبس ملابس النساء بعد خروجه من بيت «السربادي» (يقصدون الاسترباديّ). وبرغم ذلك فقد كشفت حقيقته جماعة من مؤيدي الثورة، فأردوهُ قتيلاً في الحال، ووُضع الحبل في عنقه للدلالة على إعدامه من قبل الشعب. ويُذكر أن بعض الغوغاء جروه بالحبال هاتفين بسقوطه. وتأسّف كثيرون لمقتل الملك الشاب لكونه لم يكن سبباً في ما جرى من الأحداث في ذلك الحين. ويقال أن عبد الكريم قاسم شعر بامتعاضٍ شديدٍ عندما بلغه الخبر.

احتلت حكايات هذا الزعيم الخالد الذاكرة الشعبية لفترة طويلة من الزمن، ربما ما زالت بعض الحكايات تتداول بين العامة ممن عاصروا تلك المدة. وذهب البعض إلى وصفه بصفات حميدة لا توجد إلا عند وليٍّ؛ فمن قائلٍ أنه منَ أتباع الحجة المهدي(عج)، وأنه متّخف لإنجاز مهمة إلهية مكلف بها. وذكرت امرأةٌ رأته مباشرةً «أنّ وجهه نوراني وعندما رأيته لم استطع إلا الابتهال لله تعالى وأن قامته عندما اعتلى منصة الخطابة كأن لها صلة بالسماء.»

ومن الحكايات الأخرى ما ذكره لي المرحوم محمد الوالي (من أبناء مدينة القاسم(ع) المقدسة ومن شهداء الانتفاضة الشعبانية) وكان قد ألمَّ به حيفٌ لم تستطع الحكومة في الناحية أو المحافظة معالجته بما يرضيه، فقالوا له: «عليك بمقابلة الزعيم.» يقول: «شددت الرحال إلى بغداد وذهبت لزيارة الإمام الكاظم(ع)، ثم استأجرت سريراً في فندق منهي (قرب سينما بغداد في العلاوي) وهو من الفنادق الشعبية المشهورة لأن صاحبه من أبناء الفرات الأوسط. ومع انبلاج الصبح، أخذت عريضتي وذهبت سيراً على الأقدام». فالرجل لا يعرف كيف أو أين يجد سيارة توصله إلى وزارة الدفاع، ويستطرد: «بعد أن وصلت إلى الباب النظامية، دخلت إلى الحرس فاستقبلوني بالتحية وخاصة بعد أن عرفوا مبتغاي من هذه الرحلة، ولكنهم قالوا لي اجلس: معنا حتى يستيقظ الزعيم من النوم فالساعة الآن الخامسة وأمامك ساعة أو بعضها. جلست فأخرجت كيس التبغ وأشعلت لفافة شاركني بها أحد الحراس ريثما أهديه واحدة منها. وبعد مضي الوقت المؤمل جاءني جندي وقال: أعطني عريضتك ليراها الزعيم. فأصررت أن أصحبه. ذهب ثم عاد بسرعة مصطحباً إياي إلى الغرفة التي يجلس فيها الزعيم. فوجدت غرفة عادية فيها «ميز» خشب وأريكة قديمة دون رياش يذكر. وقال: اجلس ريثما يأتيك الزعيم فجلست. لله دره كيف يحكم العراق وهو يعيش في هذه الغرفة المتواضعة. بعد قليل جاءني الزعيم بوجه ضاحك وعلى رقبته منشفة وهو يلبس بيجاما من البوبلين العادي، نظيفة ولكنها لم تكن مكوية، وسرعان ما رحب بي واحتضنني وتبادل معي القبلات قائلاً: أهلاً بأهالي الفرات. ثم أنه نادى أحد الجنود باسمه وأعطاه نقوداً وهمس في أذنه. ذهب الجندي وتركني مع الزعيم بلا ثالث، وبعد كلام المجاملات والسؤال عن أحوال الناس ومنجزات الثورة وبعد أن اطمأن سألني عن حاجتي فشرحتها له فطمأنني باتخاذ الإجراء اللازم. وسرعان ما عاد الجندي وهو يحمل إناء صغيراً فيه قشطة ومعها صمون حار ووضعه أمامي. فقال الزعيم: كُل، فهذا إفطارك. قلت له: وهل تأكل معي؟ قال: لا، فأنا جندي أفطر مما يفطر به الجيش، أتيناك بهذا الإفطار من السوق لأنك ضيف ولا يصح إلا إكرام الضيوف.» يقول محدثي: «أن الزعيم طلب إفطاره فأتوه بماعون من الشوربة مع صمونة عسكرية. وعندما أنهينا الإفطار والشاي بعده، غسلنا أيدينا، فذهب هو إلى الميز الخشبي وجلس خلفه وتناول ورقة كتب بها بعض السطور ووضعها في مظروف بعد ختمها والتوقيع عليها، وناولني إياها قائلاً: خذها إلى المتصرف في الحلة وسوف يؤلف لجنةً متخصصةً لدراسة مشكلتك وحلها. وأنا سأتصل به وبك بعد ذلك. وودعته داعيا له، فاحتضنني مجدداً وقال بلهجة محلية: سلم لي على الإمام القاسم(ع). وتناول من جيبه ورقة نقدية أعطاني إياها وقال: استعن بها في سفرك. وقد ذكر لي أن المتصرف رحب بالمظروف، وحصلت على حقوقي كاملة. وبعد زهاء أسبوعين جاء شخصٌ غريبٌ إلى داري ومعه شرطي غير مسلح ليطمئن فيما آلت إليه المشكلة فطمأنته.»

ومن القصص الطريفة ما ذكره لي أستاذي المرحوم عبد الحميد الفلوجي، مدير دار المعلمين الابتدائية في الحلة عام ١٩٦١، إبان المدة الأخيرة من حكم عبد الكريم قاسم. كان هذا الرجل إقطاعياً كبيراً حرمته ثورة تموز من امتيازات كثيرة واستولت على بعض أراضيه بقانون الإصلاح الزراعي الذي سنّته ضمن التغيير الذي حملته لمصلحة الفقراء من أبناء الشعب. ولهذا السبب أصبح الفلوجي داعيةً ضد حكم الزعيم. وبالرغم من انه كان شخصية دمثة الأخلاق حميدة السلوك سليمة النيات إلا أن رأيه كان -ضمن المعقول- ضد الثورة. وقد بدا لنا أن من مبادئ الثورة احترام الرأي الآخر. قال الأستاذ الفلوجي خلال درس الإسلامية وهو يسوق هذا المثل ليدلل على هوس الناس بعبد الكريم قاسم: في يوم ما، بلغ أتباع الزعيم الناس في الحلة بأن عليهم الخروج عند الغروب إلى ضاحية «اليهودية» (وهو نهر صغير يقع غرب الحلة في تلك الأيام والأماكن المحيطة به مكشوفة) لأن صورة الزعيم سوف تظهر على القمر. فخرج الناس فُرادى وزُرافات، منهم من كان مستطلعاً ومنهم من كان خائفاً (والعهدة على الراوي). وبعد أن وضح القمر في عتمة الغروب صاح الكثيرون: «يا الله!! تلك هي الصورة!! نعم، ها هي صورة الزعيم في القمر!» إلا أن أحدهم، وكانت علامات الطيبة والسذاجة بادية عليه، قال لمن حوله بهدوء: «ولكني لا أرى سوى القمر كما هو في كل يوم!» وعلى الفور جاءته ضربةٌ على رأسه، فما كان من الرجل إلا أن قال وهو يتألم: «نعم إني الآن أرى الصورة بوضوح.» وأخذ يصفق كما يصفق الآخرون.

ومن عجائب ما رأيت أننا كنا نمشي في أحد أسواق الحلة عندما مرت جنازة ومعها أناس كثيرون للتشييع. وكانت الأخلاق في ذلك الوقت تقتضي أن يقف المارة على جانب الطريق حتى تمر الجنازة، منهم من يترحم ومنهم من يقرأ سورة الفاتحة. إلا أن شخصاً كبيراً في السن كان يقف قربي عندما مرت الجنازة بانت على وجهه ابتسامة ماكرة وصاح بأعلى صوته نحو الجنازة: «اذهب، فإنك خلصتَ من خطب الزعيم.» ذلك أن إذاعة بغداد كانت تختار يومياً مقطعاً لخطاب من خطب الزعيم عبد الكريم قاسم لا يتجاوز طوله الخمس دقائق لتبثه قبل الرابعة عصراً، وهو موعد نشرة الأخبار. وليت الرجل تأخر به العمر قليلاً ليرى وجه «عبد الله المؤمن» صدام وصوته يهيمنان يومياً على جميع قنوات الإعلام لساعات عديدة. ترى ما كان هذا الشيخ ليقول أو يفعل؟ ومن الطريف أن نذكر أن هذه الحكاية وقعت قرب المقر الرئيس لمديرية شرطة الحلة، التي كانت تقع في بداية السوق الكبير، وكان عدد من أفراد الشرطة يقفون ومعهم المفوض، والجميع ابتسموا لصيحته. ولكن تلك هي ضريبة الديمقراطية في ذلك العهد الزاهر. وفي الحكاية ردٌّ على تخرصات البعض ممن قالوا أن حكم عبد الكريم قاسم كان ديكتاتورياً.

ومن الأقوال التي تداولت في ذلك الوقت ما كان يشدو به العامة في مجالس الأفراح والسرور فيقولون: (عاش الزعيم اللي زوَّد العانة فلس). فقد كانت العانة عملة صغيرة قيمتها (٤) فلوس. ولما جاءت الثورة جعلتها (٥) فلوس، ولا أدري على وجه الدقة إن كانت تلك المقولة الغاية منها المدح أو الذم أو السخرية والتهكم، ولكني أميل إلى الأول لكون بعض الحاجات كانت تباع بخمسة فلوس فإذا كانت لديك عانة فيجب أن تضع معها فلسا لكي تشتريها

وكان في ذلك بعض الصعوبة.

أما حكاية «طه الأعمى»، الذي كان يقود دراجة هوائية وهو لا يرى مطلقاً، فقد وضع صورة عبد الكريم قاسم بحجم كبير معلقة أمامه في الدراجة، إلا أن بعض الخبثاء سرقوها ووضعوا مكانها بنفس الحجم والطريقة صورة عبد السلام. وعندما شاهده الناس تعجبوا كثيراً وتساءلوا عن سبب انقلابه المفاجئ وهم يضحكون. ومرت عدة أيام وهو لا يدري. إلا أنه عندما اكتشف الحقيقة كسر الدراجة بما تحويه. ومن يومها لم يره الناس إلا راجلاً بنظارته السوداء المعتمة.

وحكاية «أركان الأخرس» الذي كان يضع «باجاً» على صدره يحمل صورة الزعيم. وعندما حدث الانقلاب الأسود أفهموه بالإشارة أنه مات. فطفق يبكي بكاء مراً، وأصابته لوثة عقلية فأضحى لا يلتقي أحداً. ومن يريد التفاهم معه عليه أن يذكر عبد الكريم قاسم، فهو يقرأ حركة الشفتين. وعندها فقط يتبسم ويقبل القائل وينفذ أمره بسرعة.

أما حكاية «كلفة آل مرموص» فهي عن عجوز بذيئة سليطة اللسان، كان يقصدها طلاب المزاح لتسوق عليهم الشتائم والسباب المقذع وهم يضحكون فلا تسكت عنهم حتى يعطوها مالاً أو هدية. ولما عرفوا أنها من محبي عبد الكريم قاسم، قال لها يوماً أحد الخبثاء: «سُبي الزعيم وهاي ربع دينار.» وكان ربع الدينار يسيل له اللعاب آنذاك. أعرضت عنه وقالت: «روح ماما روح، ما أريد فلوسك.» وعندما كرروا عليها ذلك في أوقات لاحقة لزمت بيتها ولم تخرج حتى ماتت رحمها الله.

والقصة التي رواها لي أحد معارفي في منطقة الحَمّام القريبة من منطقة الزُرفيَّة (الطليعة حاليا) تكاد تكون أشبه بالخيال. فقد ذُكر أن هناك امرأةً مسنةً ليس لها معيل، تعتاش على معونات الناس وتسكن بيتاً من القصب ملأته بصور الزعيم. وعندما استشهد أغلقت الباب عليها وما عادت تفتحه لمن يطرق وبعد أيام فتحوا الباب عنوة وعندما دخلوا وجدوها ميتةً وهي تحتضن إحدى صور عبد الكريم قاسم. كان اسم هذه المرأة «فلحة». ومن يومها تسمى تلك الجهة من الهور «عبرة فلحة». وأغلب من عرفها بكى بدمعتين واحدة عليها وأخرى على من ماتت لأجله.

ومن الأحداث التي جرت في ذلك الوقت أن ثُلَّة من الأشقياء والمغامرين، وأعتقد أن أيدي مدسوسة كانت وراءهم، حاولوا اغتيال الزعيم فأصابوه بعد كمين نصبوه له في شارع الرشيد فأطلقوا عليه النار بكثافة فأصابوه ولكنه نجا من الموت بأعجوبة بعد دخوله المستشفى. وقبض على بعضهم فتمت محاكمتهم علناً وغصت المحكمة بـالآلاف، والـذي لم يستطع الحضور سمعها أو شاهدها في الإذاعة والتلفاز. ومن طريف ما سمعته شخصياً أن هيئة الدفاع قدمت شاهداً وكان رئيس المحكمة الخاصة في ذلك الوقت المرحوم فاضل عباس المهداوي، وكان يدير المحاكمة بروح ديمقراطية ويتكلم المتهم ما يشاء ويسمع الدفاع كما يروم ولكنه في هذه المرة اغتاظ قليلاً من هذا الشاهد ذلك أن هذه القضية لا تحتاج إلى دفاع يذكر أو شهود يستنجد بهم فالمتهم وقف وأطلق النار وفي ذلك عدة شهود وهو –أي المتهم– قال أنه «يريد أن يخلص العراق من الدكتاتور!» المهم، تم استجواب الشاهد فسأله المكلف بالاستنطاق الأولي: اسمك؟ «فلان الفلاني». عمرك؟ «٣٧ سنة». شغلك؟ «موسيقي في الإذاعة والتلفزيون».

فما كان من المهداوي إلا الالتفات إلى كاتب المحكمة الذي كان يوثق الاستجواب وقال بسخرية: سجِّل «دنبكچي». ولا أعتقد أن أحداً يخفى عليه ما أراد بهذه الكلمة.

وعلى ذكر المرحوم المهداوي، كان هناك عرس في القرية التي أسكنها فأقام صاحبه حفلاً بسيطاً على مستوى النساء فقط. وكُنَّ يغنين الأغاني الشعبية، وكانت الأفراح عامرة في الذكرى الأولى لثورة ١٤ تموز، فامتزجت الأهازيج تلك بمدح الثورة وعبد الكريم قاسم. وغنت إحداهن: «رسمك يميل وسط القلوب.. عبد الكريم بين الجنوب..» ولما كان الحفل يضم نسوة ممن أصابهن الضرر بقوانين الثورة كما أسلفنا فقد قامت إحداهن هازجة وصوتها ينم عن غيظ دفين وبعصبية واضحة: «نزيهة بالت بالطشت وتمزلك المهداوي». ونزيهة هذه هي المناضلة المعروفة المرحومة «نزيهة الدليمي»، أول امرأة عربية تتسلم وزارة في العالم العربي، فهي وزيرة البلديات في أول حكومة لعبد الكريم قاسم والسؤال هنا: ما علاقة المهداوي بالطشت الذي تقصده أو لماذا دخل المهداوي ذلك الطشت اللعين؟

ربما الجواب بعد ذلك عند من وقفوا له في رأس القرية ليرموه بوابل من الرصاص، فكان «الطشت» المذكور أرحم بكثير.

المهم أن عبد الكريم قاسم بعد خروجه من المستشفى بأيام أصدر عفواً عن جميع المتهمين في هذه القضية وجاء ذلك في خطاب له في الإذاعة والتلفزيون بمناسبة عيد السلامة وقال كلمته المشهورة: «عفا الله عما سلف» التي تدل على سماحة ونبل أخلاق.

وعندما اقتاد الجلادون فجر الثامن من شباط المشؤم، سمَّوها «عروس الثورات»، ولكنها كانت عروساً جاءت حُبلى بالدون وسموها الأميرة ولكنها نست تاجها في أحضان عشاقها. وعندما أعلن الانقلاب أصاب الناس الوجوم وعلت وجوههم إمارات الحزن والكآبة. ثار بعضهم بالعصي والهراوات فكانت لهم نيران البنادق التي أردت منهم الكثير، فاضطروا للصمت والانسحاب وفي قلوبهم حسرات. بعضهم كان يشدو: «اشلون تموت وأنت من أهل العمارة؟» أو «اشلون البُطل وكع ابن كيفية؟» والبُطل هو الباطل في لهجتهم. ويقال أن الزعيم اسم أمه «كيفية». وبعضهم يقول بمرارة: «عفا الله عما سلف»، ويقصدون أن الذين قتلوه الآن نفسهم الذين أصدر عفوه عنهم. ومنهم من قال: «حيل وياه»، وهم يقصدون بأنه لو لم يصدر مثل هذا العفو لما حدثت له مثل هذه النهاية المحزنة. وقد رأيت بنفسي تظاهرة شبابية كبيرة اجتاحت المدينة التي أسكنها تستنكر حدوث الانقلاب وتطالب بسقوطه ولكنهم سرعان ما طوقتهم السلطة وحدثت مصادمات خفيفة وتم القبض على بعض منظميها وبعد نجاح الانقلاب وقد تمكن المنقلبون من مسك الزمام. توالت الأقاويل والحكايات أن الزعيم حي يرزق وأنه «غاب». لاحظ أن في هذه الكلمة معنى قدسي. ومما يذكر أن لي بعض الأقارب في الديوانية يسكنون حي العسكري، فذهبت لزيارتهم وعندما وصلت وجدت الحي مطوقاً بالجيش، ولا يدعون أحداً يدخله أو يخرج منه. وصاحب ذلك مداهمات للبيوت. وكان حدوث مثل هذا أمراً مستغرباً. المهم أني انسحبت إلى قريب آخر وفي اليوم التالي سألنا عن الأسباب فقالوا أنهم يفتشون عن عبد الكريم قاسم وقد ذكر لهم أنه كان يرتاد هذا الحي. فتساءلت مع نفسي: «كيف يقولون أنه تم إعدامه ثم يفتشون عنه؟» قال أحد أصدقائي: «إنهم يمتصون نقمة الناس عليهم» ولا أدري ماذا يقصد بذلك.. إن هذا الذي حدث ذكرت الأقاويل أنه حدث في أماكن أخرى من العراق.

وذكر لي أحد معارفي وقد كان طالباً في معهد الفنون الجميلة/ قسم المسرح أن الفنانة «فوزية عارف»، وهي زميلة له في ذلك الوقت، ذكرت له أنها في ذلك الحين كانت ترتاد محطة الإذاعة والتلفزيون لعمل ما، وأنها عندما أتوا بعبد الكريم قاسم إلى الإذاعة كانت تنظر إليهم من شق في ديكور المسرح. وكان كبيرهم عبد السلام محمد عارف. فقال عبد الكريم قاسم بعد نقاش قصير: «إني عفوت عنكم عدة مرات فلماذا تقتلوني؟» فأجابه عبد السلام: «أنت غبي»، ثم أخرج مسدسه وأطلق على رأسه ثلاث عيارات نارية فأردته قتيلا في الحال. واعتبرت هذه المحادثة –حسب بيان الانقلاب– محاكمة، ثم حكماً بالإعدام رمياً بالرصاص حسب التصوير التلفزيوني المعلن.

ومما ذكر أن شخصاً حبس عدة شهور لأنه ذكر في أحاديثه أن عبد الكريم قاسم قد مر بهم وتناول طعام العشاء مع أبيه في بيتهم. ومن الطرائف أن «السيد هويدي السيد عبيد»، وهو من أهالي القاسم كان صبياً أبان تلك الأحداث، طلب من أبيه أن يعطيه ربع دينار فرفض أبوه ذلك وأعطاه درهما فصاح: «أيها الناس إن عبد الكريم قاسم تغدى مع أبي هذا اليوم»، فأمسك الأب بابنه غالقاً فمه بيده وأعطاه الربع دينار صاغراً، متوسلا السكوت.

ومما يذكر أن الانقلابيين عرضوا صورة في التلفاز للغرفة التي كان يسكنها الزعيم وفيها أنواع من زجاجات الخمر وصور خليعة لممثلات أجنبيات ومكتبة فيها من بعض كتب «أرسين لوبين» ومغامرات الغانية العالمية المشهورة «ايرما لادوز». ولكن المنصفين ذكروا بأنهم لم يجدوا في جيب قميصه إلا مبلغ (٧٥٠) فلساً أي ثلاثة أرباع دينار من العملة مع دفتر نفوس، وإن غرفته خالية إلا من سرير وكرسيٍّ ودولاب ملابس عسكريٍّ فيه بدلتان بالرتبة العسكرية وعدد من القمصان وزوجان من الأحذية وعدة كتب عسكرية مع رواية البؤساء للكاتب الفرنسي فكتور هيجو، وعدة كراسات أخرى لمنجزات الثورة و«ترمس» ماء مع كأس زجاجي وزجاجة كولونيا المسماة في ذلك الوقت «ريف دور».

ومرر الانقلابيون عبارات تم تداولها في الإعلام رداً على عبارات كانت موجودة مثل «الزعيم الأوحل» بدلاً من «الزعيم الأوحد»، و«الزعيم الهمشري» بدلاً من «الزعيم العبقري»، و«الزنيم» بدلاً من «الزعيم»، و«قاسم ظهر الأمة» بدلاً من «قاسم حبيب الأمة»، و«قاسم أبو الحقراء» بدلاً من «قاسم أبو الفقراء»، و«عبد الكريم رص الجيوب» بدلاً من «عبد الكريم رص القلوب»، و«أبو الأشرار» بدلاً من «أبو الأحرار»، و«ابن الشغب» بدلاً من «ابن الشعب»، و«العار» بدلاً من «البار». لعنهم الله، لقد سماه الناس بقلوب نابعة بحبه وهم ردوا بحقدهم اللعين.

أما قضية «حامد قاسم» شقيق «عبد الكريم قاسم» فقد اتخذ منها الإعلام في ذلك الوقت حجة للنيل من تاريخ الزعيم في أن هذا الرجل أثرى لكونه من عائلة الزعيم. وعلى حد علمي أن الحقيقة في ذلك لأن حامد كان يملك مالاً قبل الثورة ومن الطبيعي أن يزداد بعد الثورة لأن التجارة مبدأها السمعة. ومع هذا فقد نصحه الزعيم بعدم استغلال اسمه في تجارته، وطلب منه أن يترك التجارة.

ولما لم يستجب، أودعه السجن وحجز أمواله. وخوفاً على سمعة الزعيم، طلب منه رفاقه إطلاق سراحه فأُطلق وهاجر إلى مصر، وكان لديه مال قليل هناك فتابع تجارته فيها. أما المال الذي حُجز، فقد صادره الإنقلابيون واتخذوه حجة ضد الزعيم.

أما الذين رأوه في المنام فعددهم كثير وفي كل يوم تذبح شاة أو دجاجة أو بطة فمن العادات هنا أن الميت إذا رأوه في المنام قالوا: «اذبح وتَرَحَّم». والذي لا يملك حق ذبيحة، يُعِدُّ شيئاً بسيطاً ويترحم به. ومن أطرف ما سمعت في هذا المجال «السيد عبد الزاملي» أصبح من يومه وعلى حين غرة وهو يتمم إصلاح بيته ويزينه ولما سألوه: «ألديك عرس أو مناسبة؟» قال: «لا»، وسكت ولكنه أسر لبعض أصحابه بأنه رأى في المنام عبد الكريم قاسم وهو يعده بزيارة بيته. ومثل هذه القصة حدثت في منطقة الوسامة، قرب الطليعة. فقد أولم «الحاج وحيد الراضي» عدة ذبائح لعرس أحد أولاده ودعا الناس لذلك ولكنه في الليل حمل قنديله وأخذ يتفرس في وجوه الحاضرين واحداً واحد. ولما سألوه، سكت. وذكر لهم بعد ذلك أن ابن عمه حضر من بغداد وهو يفتش عنه. ولكنه ذكر لي شخصياً أنه يفتش عن الزعيم الذي رآه في المنام وهو يعده بحضور الدعوة التي وجهها له.

اللهم ارحم عبد الكريم قاسم وارحم رفاقه الأحرار وارحم الشعب العراقي الذي عانى الأمرين بعده. تلك هي الحكايات التي عاصرتها، جمعتها صحيحة، وبعض شهودها ما زالوا أحياء يرزقون.

فيها بلاغة الحقيقة التي إن تمعنتُ بها أصابتني غصة في الحلق تركت أثرها طعما مراً، وكلما تذكرت أحداثها شعرت بعيني جفاف البكاء وحرقة الدمع المتصلب. ولا أريد أن أزيد على ذلك، فقد أتهم بأني واحد من أبطال الحكايات. فقد سبق للغلاة أن قالوا أن مذهب عبد الكريم قاسم: «مذهب ذوي العاهات». ويقصدون أن الذين يحبون عبد الكريم قاسم أغلبهم مثل هؤلاء. وأنا أقول أن أغلب الفقراء يحبون هذا الزعيم ولكن كظم الجميع غيظهم. وبان الغيظ لدى المذكورين لفرط طيبتهم. فإن كان كذلك فإني أتشرف أن أكون منهم. وكان الأجدر أن يقولوا عنه بأنه «مذهب ذوي الطيبة» أو «مذهب الطيبين» أو «مذهب أهل الله».

قاسم والجواهري

قصة اللقاء الاول بين قاسم والجواهري

يتعرف قاسم أثناء سفره الى لندن عن قرب بالجواهري الكبير، الذي كان أحد أعضاء وفد نظمته السفارة البريطانية في بغداد لمجموعة من الصحفيين العراقيين لزيارة لندن والاطلاع على معالمها وتعمير، ما خربته الحرب العالمية الثانية بفترة زمنية قصيرة. مَثَّل هذا اللقاء بين الجواهري وقاسم بداية العلاقة المتميزة والقلقة بينهما.

وبصفاء لغته واعتزازه الكبير بذاته المتمردة يصف الجواهري هذا اللقاء بالقول:

« في الملحقية العسكرية بلندن... كانت بعثة عسكرية خاصة تضم ملحقين وموفدين من ضباط يتسابقون عليَّ ويجرني الواحد بعد الأخر من أرادني ؟ وكان بينهم ضابط شاب، كان من دونهم، أشد إلحاحاً علي بأخذ حصة أكبر، أو الحصة الكبرى من الجلسات واللقاءات، من جملة ذلك أن اصطحبني إلى بيته وهو شقة متواضعة بملحقاتها. هذه « الدويرة» شهدت ثلاث لقطات، تصح أن تكون على بساطتها ذات كلمة ومغزى، لما سيكون لهذا الرجل من دورٍ خطير في تاريخ العراق... لم يكن هذا الرجل سوى عبد الكريم قاسم «.

اصطحب الزعيم قاسم، الجواهري إلى مختلف مناطق لندن ليطلعه على معالمها، بعدما نفر من البرنامج الموضوع لهم ومن صحبة بعض الصحفيين الذين كانوا معه ضمن الوفد. كما كان قاسم بمثابة مترجم له عند مراجعة الأطباء وزيارة المعالم الثقافية. كان قاسم معجباً أيما إعجاب بالجواهري الكبير، في كثير من مواقفه السياسية المناهضة لسياسة نخبة الحكم وارتباطها ببريطانيا وفي دفاعه عن الفقراء والمحرومين، وفي قصائده الشعرية موضوعةً وهدفاً، المتميزة بالصورة الجمالية وصفاء اللغة، وسلمها الموسيقي المنفرد في انسيابيته.

في ذات الفترة يسافر الوصي عبد الإله إلى لندن، حيث كان يقضي أجازته فيها، « وقد أرسل في طلب الجواهري، وتحادث معه طويلا حول ترشيحه إلى الانتخابات النيابية، وطلب إليه تمديد اقامته في لندن ليعود معه في وقت واحد إلى بغداد. لكن الجواهري اعتذر له بعدم امكانية بقائه لمدة أطول في لندن، وكان متضايقاً من اقامته فيها.... خرج الجواهري من اجتماعه بعبد الإله متوجها إلى الموعد مع صاحبه (الضابط برتبة رائد)، حيث حجز له موعدا مع طبيب الاسنان وفي الطريق تحدث إليه عن الانتخابات النيابية المزورة، وخلو مجلس النواب من أصوات وطنية محترمة، لكن الضابط أنتقل بالحديث ، إلى حفلة المساء الماضي وأبدى دهشته وارتياح الجواهري على كرنلواليس. وأخذ يترجم له الخبر المنشور تحت الصورة في الجريدة وخبر رويتر قائلا ببراءة أن الشعراء مسموح لهم كل شيء، وهم يشكون من عدم وجود الحرية. أما نحن العسكريين، فلا نتمتع بأية حرية ولا نشكو من انعدامها «.

بعد ذلك، كان قاسم « يتابع مواقفي الوطنية والاجتماعية، وبخاصةً الشعرية منها. وكنت الوحيد الذي يناديني ب « الأستاذ « أمام اتباعه وغيرهم وفي أكثر من موقف... «. كما كان قاسم منذ بدء علاقته « صادقاً معي كل الصدق وأميناً كل الأمانة ونظيفا كل النظافة في حفاظه على تلك العلاقة، وصحيح كذلك أنه لم يصل مدني واحد في العراق هذه الدرجة من الثقة والوطادة والعلاقة... حتى وصل الحد به إلى أنه أعلن وهو يفعل ما يقول: أنني لا أرد طلباً للجواهري...«.

بعد عودتهما من لندن أخذت هذه العلاقة توهن واللقاءات تتباعد، بسبب طبيعة عمل الزعيم قاسم العسكري ونضاله السري لأجل تغيير الحكم حسب طريقته الخاصة. وفي الوقت نفسه نضال الجواهري السياسي السلمي بالكلمة والنضال السلمي التحريضي لتهيئة بعض من ظروف مخاض التغيير المرتقب ومستلزماته، ضمن دائرة رؤيته لذاته التي تعتمل داخلياً وبصورة عفوية قوية على سجيتها : « لعل الجواهري يُحسُّ في قرارة نفسه بأنه لا أحد يصلح لقيادة العراق سواه...» و « يشعر في قرارة نفسه أنّه أكبر من أيّ رئيس، وأرفعُ قدرا».

بمعنى آخر « عاد الجواهري إلى بغداد ولم يعد يذكر صاحبه الضابط في لندن ولا الضابط كانت تسمح له التزاماته العسكرية وطبيعته الشخصية ومشروعه الخاص، بتوسيع دائرة علاقاته في بغداد، والاتصال بشاعر سياسي كالجواهري «. وغيره من السياسيين العاملين ضمن خارطة التغيير المرتقب في عراق تلك المرحلة. خاصةً والجواهري كان أشهر من نارٍ على علم، حيث «... عرف عن هذا الملك غير المتوّج الذي اسمه الجواهري أن توحد في مرحلة الاربعينيات بالناس توحداً يكاد يكون تاماً، واشتُهر بينهم بصفته شاعراً سياسياً فريداً في كل عصور الشعر العربي.

أما سبب فرادته فهو أنه نقل الشعر السياسي من موضوعٍ إلى ذات... إن ما تحدث به الشاعر عن هموم الجماهير لمْ يكن من همومها هي وحدها، وإنما كان من هموم الشاعر نفسه، ولكنّ لهذا الشاعر من الموهبة الأصيلة ما يجعله يلتقط من همومه ما هو إنسانيّ، لا ما هو خاص به».

استمر هذا الفراق المؤجل لغاية ثورة ١٤ تموز حيث تجددت العلاقة بينهما ثانيةً ببعدٍ جديد ذي علاقة خاصة ومضامين بنائية مستهدفة.. وقد « تقاسم الصديقان الزعامة!! عبد الكريم قاسم زعيم السلطة السياسية. والجواهري زعيم السلطة الثقافية وزعيم الصحافة «. وكان عبد الكريم قاسم «... يتعامل مع الجواهري صديقاً وسياسياً، كما هو شاعر كبير، فيشاوره في الأوضاع السياسية، ويجالسه طويلاً في الإسبوع أكثر من مرة..»

ويشار إلى واقعة ذات دلالة. يقول: « فقد كان يحز في نفسه أنّ هذه الأحزاب العراقية يوم تقتسم المناصبَ السياسية، أو يوم يُخيَّل لها أنّها ستقتسم لا ترى فيه أكثر من شاعر، ومن هنا كان يروي بمرارة أنّه زار الزعيم عبد الكريم قاسم ذات مَرّة في مقرِّه بوزارة الدفاع، فوجد الفقيد الأستاذ عامر عبد الله عنده، فكان في جلسة عامر ما يوحي أنه أعطى ظهره للجواهري، وتنبه الزعيم إلى ذلك فقال لعامر بشيء من العصبية:

عامر ، هذا الأستاذ الجواهريّ!

فعدل من جلسته ».

هذه الصفة التي تمتع بها الجواهري في دفاعه وتبنيه مطالب الجماهير الفقيرة وتوحده مع معاناتهم، هي التي دفعت قاسم أكثر فأكثر إلى لقياه، كمشروع مشترك ومعلم أدبي رفيع، والذي كان آنذاك في خضم التهيئة لانضاج البعد الذاتي لحركة الضباط الاحرار. وفي الوقت نفسه إعجابُ الشاعر العميق في لا وعيه يومها بشخصية عبد الكريم قاسم وهو يحث الخطى في اشباع جزء من الحاجات المادية للجماهير الواسعة من الفئات والطبقات الكادحة التي دافع الجواهري عنها وتوحد معها وتطلعاتها.

يقول الجواهري: « ...غير أني أستطيع التأكيد ثانيةً أن عبد الكريم قاسم كان يملك ضميراً حياً ونزاهة نادرة، وبساطة في اللباس والحياة والمأكل، مما جعله يضاف إلى قائمة المترفعين عن المظاهر والمكاسب وجاه الثورة وهو ما أغفله الكثيرون من الكتاب والصحفيين والمؤرخين

مجلة المواسم تموز ١٩٩٧

عراقيون
من زمن التوهج
ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
التحرير : علي حسين
التصميم : نصير سليم
الاشراف اللغوي : يونس الخطيب
رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
فخري كريم
طبعت بمطابع مؤسسة المدى للاعلام والثقافة والفنون